اقتراب الساعة.. وانشقاق القمر

قبل أن نتحدث عن يوم القيامة، وما سيحدث فيه، لابد أن نتناول أولاً معنى الآية الكريمة: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١].

ذلك أن بعض الناس يجادل فى هذه الآية ويقول: إنها حدثت وانتهت، والبعض الآخر يقول: إنها ستحدث فى آخر الأيام.

وانشقاق القمر هو معجزة حسية، أو معجزة مشاهدة، والمعجزات الحسية تأتى مرة واحدة ولا تتكرر، والمقصود بها هم الذين شهدوها، أما نحن الذين لم نشهدها فإننا نصدقها لأنها جاءت فى القرآن الكريم، ومن هنا فإن موسى عندما ضرب البحر بعصاه فانشق فنحن لسنا المقصودين بهذه المعجزة، ولكن المقصود بها هم أولئك الذين شهدوها، أى تثبيت المؤمنين الذين كانوا مع موسى عليه السلام، وجنود فرعون يتبعونه.

فالذين يقولون إن انشقاق القمر قد حدث، هم الذين شهدوا هذه المعجزة، ومعنى اقتربت الساعة أن رسول آخر الزمان قد بعث، هذا هو معنى الاقتراب، فإن كل رسول قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء وبعده رسل، أما الرسول الخاتم وهو محمد عليه الصلاة والسلام، فهو الرسول الذى ستقوم على رسالته الساعة ولن تأتى بعده رسالة أخرى من السماء، هذا هو معنى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾.

أما معنى ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾، وهل سينشق أم انشق فعلاً، إذا أخذناها بمعنى أنه قد انشق فعلاً فهذه ظاهرة كونية، وهى ليست مطلوبة ممن لم يرها بل هى مطلوبة ممن شهدها؛ لأنها تجىء لمن يشهدها، وهى تكون آية على صدق الرسول، ولا تأتى للبشر كافة، وإنما لمن شهدوها.

فالذى جاء للناس كلها للبشر جميعهم، لم يكن آيات كونية، ولكنه كان معجزة خالدة مستمرة لا تنتهى أبدا، فمثلا عندما نقول إن عيسى أبرأ الأكمه والأبرص، فهذا لم يحدث إلا مرة واحدة ثم انتهى.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بمثل هذه الآيات، ولكننا نحن لسنا مطالبين بها، إنما المطالب بها من شهدها، فنبع الماء من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتظليل غمامة له، وتسبيح الحصى فى يديه، كل هذه آيات كونية لتثبيت المؤمنين الأولين الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن شهدها فهو مطالب بها.

وانشقاق القمر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، رآه بعض الناس وبعض

الناس لم يروا، نقول: إن هذا شيء طبيعي، لأننا ونحن الآن في عصر تقدم يحدث كسوف للشمس أو خسوف للقمر، كم من الناس يشاهد هذه العملية؟ عدد قليل جدا، مع أن الموعد يكون معلناً مسبقاً، والناس قد قرأوا الخبر وسمعوه من أكثر من مصدر، فإذا حصل خسوف للقمر، وهذا يحدث ليلاً، فمعظم الناس يكونون نياماً ولا يراه إلا قلة من العلماء الذين يعملون في الفلك، وبعض من يبقى مستيقظا خصيصاً ليتابع هذا الحدث.

إذن.. فلا يعنى لأية ظاهرة كونية إلا لمن يراها، ونحن نقول دائما إنه ليس مع العين علم ولذلك فإن الذى رأى ليس مطلوباً منه الإيمان، لأن الرؤية علم وليست إيماناً.

بقى الذين لم يروا، من أراد يصدق فقد آمن بأن هذا حدث، لأنه في هذه الحالة يكون ما تم مشهود بالنسبة له، أى غيبا بالنسبة له، والإيمان لا يكون إلا بالغيب، ولا يكون بشيء حسى مادى مشاهد.

ففى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انشق القمر ورآه من رآه[1]، فمن أراد أن يصدق رواية الذين رأوه فقد آمن، ولكن المسألة عندما تذكر في القرآن الكريم أو يجيء بها القرآن مؤكدا رواية الرواة تصبح يقيناً.

وأما من يريد تفسير الآية الكريمة، بمعنى أنَّ اقتربت الساعة، أى إن الساعة تقترب، وينشق القمر آية لها، فنحن لا نستطيع أن ننفى أن ذلك يمكن أن يحدث وما دام الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ اقْتَرَبَتِ ﴾ فإننا لابد أن نعرف يقيناً أنها اقتربت، ذلك لأن الله حين يخبرنا بشيء مستقبلي فهو يقين إيماني.

وهنا ننبه إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١].

كيف يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ أَتَىٰٓ ﴾ ثم يقول: ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ما دام قد أتى أى قد حدث وتم، فكيف لا نستعجله؟

نقول لمن يحاول أن يستخدم مثل هذا الاختلاف الظاهرى بين الألفاظ، أن الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن أمر مستقبلي فإنه يتحدث عنه بأنه قد وقع وتم فعلا، ولا يستطيع أحد من خلق الله ولا قوة غير الله أن تتحدث عن المستقبل في صيغة الماضى لماذا؟

لأن الإنسان إذا تحدث عن شيء سيقع في المستقبل، فلابد أن يتحدث عنه كشيء مستقبلي، فالإنسان لا يملك القدرة ولا القوة ليضمن حدوث الشيء، فهو لا يملك البقاء على قيد الحياة حتى يأتى موعد وقوع الشيء، وهو لا يضمن أن قوته ستمكنه من عمل

(١) رواه البخاري [٣٦٣٧]، ومسلم [٤٣/٢٨٠٠] عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: «انشق القمر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم شقين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اشهدوا».

هذا الشيء حتى إذا بقى على قيد الحياة، وهو لا يضمن الظروف التى قد تكون سائدة فى هذا الوقت حتى يقع هذا الشيء أو لا يقع، فقد يأتي شيء ما خارج عن إرادة الإنسان يمنع حدوث ما وعد الإنسان بأنه سيحققه، ونحن لا نملك المستقبل.

ولكن الله سبحانه وتعالى حى لا يموت، قاهر فوق عباده، لا أحد يستطيع أن يمنع حدوث أمر الله، فإذا حدّث الله سبحانه وتعالى عن المستقبل بصيغة الماضى فإنه لا محالة حادث.

إذن.. فإن المستقبل بالنسبة للبشر يصح أن يكون أو لا يكون، ولكن الإخبار من الله القادر على تنفيذ قوله يكون قد وقع بمجرد إخبارنا به، وإن لم نكن نره أو نشهده.

والذين يقولون إن القمر انشق فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين يقولون سينشق القمر عندما تقترب الساعة، نقول: إن كلا القولين صحيح وغير متعارض فالقمر قد انشق، والقمر سينشق مرة أخرى.

أهوال يوم القيامة.. والنفخ فى الصور

ونأتى إلى ما جاء فى القرآن الكريم عن أحداث يوم القيامة، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

هاتان الآيتان وآيات غيرهما تخبرنا كيف سيخرج الناس من قبورهم، فنحن نأتى إلى الدنيا تباعاً، أى فرداً فرداً، ولكننا حين نبعث فى الآخرة، فإننا نبعث مرة واحدة، أى نقوم جميعاً فى لحظة واحدة، حينئذٍ يصبح هناك ازدحام شديد، لأن أهل الأرض كلهم منذ بداية الخلق قد خرجوا من قبورهم دفعة واحدة، والله يريد أن يقرب لنا الصورة بشىء يحدث أمامنا فى الدنيا؛ فيشبه هذا الازدحام بالجراد عندما يأتى يكون هناك ازدحام رهيب بحيث لا تستطيع أن تميز بينه كأفراد بل يكون كأنه غمامة لا تستطيع أن تميز بين فرد وآخر ويحجب الازدحام الشمس ويصبح الأفق مظلماً، ولا أحد يستطيع أن يميز فى وسط الزحام، بل أفواج تلو أفواج، هذه إحدى صور يوم الحشر.

والناس سيخرجون من الأرض التى دفنوا فيها نفسها، وبعد خروجهم يساقون إلى أرض المعاد فتتبدل السماوات غير السماوات، والأرض غير الأرض مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وهذا القول لا يعارض قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

لأن الناس سيخرجون من هذه الأرض، سيبعثون منها، ثم بعد ذلك يساقون إلى أرض المعاد التى سيتم فيها الحساب.

والأرض التى نعيش عليها هى معدة للحياة الدنيا حتى لحظة البعث، ومدخر فيها أقوات البشر وأرزاقهم؛ ولأنه فى الحياة الآخرة تنتفى الأسباب، فلا تصبح هذه الأرض التى نعيش عليها صالحة، فقد أدت مهمتها فى استيعابها الحياة الدنيا ثم انتهت هذه المهمة بيوم البعث، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى بعد أن يخرج الإنسان إلى أرض المعاد، فإن تلك الأرض التى كان مطموراً فيها أسباب الحياة ومطموراً فيها أقوات البشر، انتهت مهمتها فالرزق فى الآخرة سيأتى من الرازق مباشرة وليس بالأسباب.

ولكن هل سنخرج ونمضى هكذا بدون أن تكون غايتنا محددة؟ وهل كل واحد فينا

يستطيع أن يذهب إلى أى مكان يريده وعلى هواه، هذا يتأخر وهذا يتقدم، وهذا يذهب يميناً، وهذا يذهب يساراً، وهذا إلى الخلف، وهذا يزاحم من الخلف ليتقدم الصفوف.

لن يحدث هذا أبداً، فلقد انتهت أهواء النفوس ورغباتها، وأصبح كل واحد منا خاضعاً لأمر الله مباشرة، لقد انتهى الاختيار فى أفعل ولا تفعل، انتهت فترة الامتحان ولم يعد أحد قادرا على ألا يفعل، إذا قال الله أفعل أو لا تفعل فهذا الاختيار كان ممنوحا للبشر فى الحياة الدنيا لحكمة، وهو أن يكون كل إنسان شهيداً على نفسه وأن يختار الإنسان طريقه بإرادته ليكون الحساب عدلاً، ولكن هذا انتهى اليوم فلم يعد لأحد حرية ليختار ما يريد، بل أصبح الأمر كله لله.

انظر إلى دقة الأداء فى القرآن فى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

ما هو السائق؟ السائق هو الذى يسوق الغنم إلى المرعى، ومكانه دائماً خلف الغنم حتى يصحح مسارها، فإذا انحرفت يميناً أسرع هو ليعدل مسارها، وإذا انحرفت يساراً أسرع ليعدل مسارها، إذن.. لكل إنسان من يسوقه إلى مكانه يوم القيامة، يسوقه إلى أرض المعاد إلى الحساب.

المؤمن الذى عرف أن مصيره النعيم سيمضى وهو مسرور مبتسم، ولكن الكافر الذى عرف أن مصيره النار، كلما توقف فإن هذا السائق الذى وراءه يدفعه إلى الأمام، وإذا حاول أن يتجه إلى أى اتجاه آخر، فإن هذا السائق سيدفعه إلى مساره؛ لأنه لا يقوده أى لا يمشى أمامه، ولكنه يسوقه؛ أى يمشى خلفه حتى لا يفلت منه ويكون أمام نظره دائماً حتى إذا حاول أن يقف أو يتوقف، يدفعه دفعًا إلى أن يوقفه فى مكانه.

أما معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَشَهِيدٌ﴾، فإن الإنسان معه شهيد من نفسه، وشهيد من صحيفة عمله، بل إن جوارحه تشهد عليه يوم القيامة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النور: ٢٤].

إذن.. فكل إنسان سيكون معه كتابه، ومعه الشاهد عليه، ويقف الناس لرب العالمين.

أهوال يوم القيامة.. والعرض على الله

وحينئذ يبين الله سبحانه وتعالى لنا: ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الكهف: ٤٨].

وهنا يلفت انتباهنا قوله تعالى: ﴿ صَفًّا ﴾، هل سيقف الخلق جميعاً من عهد آدم إلى يوم القيامة صفا واحدا؟ وكم سيبلغ طول هذا الصف؟ وأى مكان يتسع لكل هؤلاء الخلق من الخليقة حتى نهايتها؟

نقول إن المعنى يمكن أن يكون ذلك، وأن قدرة الله تستطيع أن تخلق المكان، وأن كل هؤلاء جميعاً يقفون صفا واحدا، والله قدرته لا تفوقها قدرة، وكونه بلا حدود.

وقد يكون المقصود من الآية هو أنه لن يفلت واحد من الله سبحانه وتعالى، ذلك أنك إذا أوقفت الناس أمامك صفوفاً فإن الذى تراه وتلحظه جيداً وتراقب كل حركاته هم الموجودون فى الصف الأول، أما أولئك الموجودون فى الصفوف: الثانى والثالث والرابع والأخير، فستكون ملاحظتك لهم أقل بحيث يستطيع أى واحد منهم أن يتوارى فيمن هم أمامه ويفعل شيئاً لا تراه أنت، والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن أحداً من خلقه لن يستطيع أن يفلت، ولو ثانية من مراقبة الله له، وكأنهم جميعاً واقفون صفا واحداً لا يمكن لواحد منهم أن يتوارى فى شىء؛ لأن كلا منهم لن يستطيع الإفلات ولا حتى مجرد الإتيان بحركة، ولن يتجاوز أحد منزلته، بل سيلزم مكانه فى الصف، مكانه الذى حدد له بعمله فى الدنيا بالطاعة واتباع منهج الله.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الكهف: ٤٨].

أن الحياة التى نشرت فى أزمان مختلفة عادت لأصحابها فى هذا الكون.

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣].

ومعناه أيضاً أنكم تركتم كل ما كان لكم فى الحياة الدنيا من مال وجاه وعزة وعزوة.

﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ [الكهف: ٤٨]. بدون أى قوة تمنعكم منا، أو عصبة تدافع عنكم، أو مال يشفع لكم، وليس معكم شفعاؤكم الذين كنتم تعتقدون فى الحياة الدنيا أنهم سينفعونكم فى هذا اليوم، ولا آلهتكم الذين عبدتموهم من دون الله.

والمعروف أن كل إنسان فى الحياة الدنيا قد يكذب على نفسه، فقد يعتقد زيفاً أن هناك من سينفعه أو سينقذه من العذاب يوم القيامة، وقد يعتقد زيفاً أنه قد يستطيع أن يفلت

أو أن عذاب الله سيكون يسيراً عليه، ثم بعد ذلك يدخل الجنة أو قد يقول أؤجل التوبة حتى أكبر، ولكن بعد ذلك لا يمهله الأجل، أى إن كل إنسان قد يكذب على نفسه فى امتدادات الأمل وهذا حادث فى الحياة الدنيا، فكل إنسان لديه آمال كثيرة قد لا تتحقق أبداً، ولكنه يعيش على أساس أنها ستتحقق، ولكن هذا معناه الأمل الكاذب، أى الأمل الذى لن يتحقق، ولكن إذا أصبحت المسألة واقعاً، حينئذٍ لا يكون هناك أمل، بل يصبح هناك واقع فقط كما سيحدث فى الآخرة.

وإذا أردنا أن نضرب لهذا مثلاً - ولله المثل الأعلى - نقول: هب أن طالباً أخذ يُمنى نفسه بالأمل الكاذب، ويقول لنفسه ليس من الضرورى أن أحضر محاضرة فأنا فاهم، وليس من الضرورى أن أسمع الأستاذ فأنا سأقرأ الكتاب، ويظل هكذا إلى أن يأتى يوم الامتحان فيجد نفسه راسبا.

هكذا الإنسان فى الحياة الدنيا، يُقصر فى تطبيق منهج الله فيقول أنا لن أصلى اليوم، ولكنى سأصلى غدا، لن أؤدى الزكاة هذا العام ولكنى سأؤديها فى العام القادم، ويظل هكذا يهمل تطبيق المنهج إلى أن يأتيه الأجل، حينئذ يجد نفسه أمام الحساب وأمام الجزاء بدون أن يكون قد استعد لهذه اللحظة، بل غرته الأمانى فى حياته الدنيا.

والشيطان الذى استغل الإنسان، ووقف له فى كل طريق مستقيم، ووسوس له فى الدنيا وزين له أن يترك الصلاة اليوم على أساس أنه سيصلى غداً، وأن يترك الزكاة إلى العام القادم... إلخ. يأتى يوم القيامة فيحاول أن يهرب من المسئولية فيقول: إنه لم يكن له سلطان على عباد الله ليقهرهم على المعصية، والسلطان إما أن يكون قوة مادية تقهر ذلك بأن أقيد إنسانا ثم أقوده إلى حيث أريد، أو أقيده ويحمله أعوانى إلى المكان الذى أريده، أو يكون السلطان هو سلطان الحجة، بحيث يقنع الإنسان ليفعل ما يريد الشيطان.

إذن.. فالسلطان إما قوة قهر أفعل بها أنا ما أريده بك، أو سلطان حُجة وإقناع يجعلك أنت تفعل ما أريده، ولكن باختيارك، والشيطان لم يُعط سلطان القوة، ولا سلطان القهر أى إن الشيطان ليس عنده حُجة ليقنع، وليس لديه سلطان قوة ليقهر، ولكنه وجد فى داخل الإنسان هوى ورغبة للمعصية فزينها له فلا يقل أحدكم اليوم: إنه مقهور؛ لأن الشيطان لا يستطيع أن يقهركم على المعصية، أو حتى يقنعكم بها، وكل إغواء الشيطان للنفس البشرية هو شهوات هذه النفس التى تريدها ويزينها لها.

ودعوى الشيطان كاذبة، ونحن نعرف أنها كاذبة، وقد يبين لنا الله سبحانه وتعالى ذلك فى إغواء الشيطان لآدم وقد قال الشيطان لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

أى: إنه وعده بالخلود والمال الذى لا يفنى، ولم يأخذ آدم إلا المعصية والطرد من

الجنة، ولكن رغم أننا نعرف كذب الشيطان، فإن إغواءه يصادف هوى فى نفوسنا فنصدقه، ويقول الشيطان فى هذا الموقف الذى تخلت فيه الدنيا عن الإنسان العاصى: ﴿ مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

أى إن الشيطان يقول: أنا لا أستطيع أن أنجيكم من العذاب اليوم، ولا أنتم تستطيعون أن تنجونى منه؛ لأن الصراخ معناه طلب النجدة من مصيبة لا يقوى الإنسان على مواجهتها بمفرده، فإذا شب فى إنسان حريق فإما أن يستطيع أن يطفئه بنفسه فلا يصرخ طالبا النجدة يقوم بإطفاء الحريق، وأما إن كانت النار أقوى منه ومن قدراته فإنه فى هذه الحالة يصرخ طالباً النجدة؛ لأنه يواجه حدثاً أقوى من قدراته.

وإذا هاجم الإنسان لصا، فإنه إذا كان يقدر عليه واجهه، أما إذا لم يكن يقدر عليه كأن يكون اللص أقوى منه، فإنه فى هذه الحالة يصرخ طالبا النجدة.

حين يسمع الناس الصراخ فهم نوعان: نوع لا يجد فى نفسه المقدرة فلا يذهب إلى الصراخ لينجده، ونوع آخر يجد فى نفسه المقدرة فيذهب وينقذه وحينئذ يقال أصرخه فلان أى أزال سبب صراخه.

ولكن الشيطان يوم القيامة لا يستطيع أن يصرخ أحداً، لا يستطيع أن ينقذ أحداً من العذاب، ولا يستطيع أحد أن يصرخه، أى ينجيه من العذاب، يقول الشيطان للعاصين: ﴿ مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾.

ويعطينا الله سبحانه وتعالى صورة دقيقة ليوم الحساب فيقول: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨].

ولقد ألفنا فى الدنيا أنه ساعة أن يكون هناك حساب أو محاسبة، فإن الأصوات تعلو وكل واحد يجادل بقوته وصياحه، كذلك ألفنا أن الإنسان ذا القوة والنفوذ عالى الصوت دائما، ومعنى علو الصوت هنا أنه يستطيع أن يحقق ما يريده، هذان هما المعنيان المادى والمعنوى لأن تقول: فلان صوته عال، وفى أحيان كثيرة نقول: سنرى أيًا منا أعلى صوتاً، أى أكثر قدرة على تحقيق ما يريده.

وعلو الصوت المادى يبين أن صاحبه قوى، أو كما يقولون «مسنود» فالإنسان يعلو صوته عندما يحس بالقدرة، ولكنه إذا كان مسكيناً مغلوباً على أمره، فإنك تراه يقف ذليلاً لا يستطيع صوته أن يتجاوز أمتاراً قليلة.

فلو أخذنا علو الصوت على أساس مادى، أى إنه يمثل قوة ساعة المجادلة أو المحاسبة، أو أخذناه على أساسه المعنوى، أى إنه يمثل القدرة على قضاء ما يريده، فكلا الأمرين سيختفى فى الآخرة، فلا يستطيع إنسان أن يعلو بصوته على آخر مهما يكن هذا الإنسان قويا فى الدنيا، والآخر ضعيفاً فيها لأن ارتفاع الصوت إعلام بمدى ظهور ذلك المستعلى بصوته على الآخر.

إذن . . فستكون هناك مساواة كاملة فلا يوجد قوى دنيوى يعلو بصوته على ضعيف دنيوى، ولا سيد يستطيع أن يعلو بصوته على من كان يستعبدهم أو يسيطر عليهم.

وهكذا تخشع الأصوات كلها، فلا يوجد تمييز دنيوى بين الناس، بل تختفى كل المميزات فى الآخرة ونصبح جميعاً متساوين أمام الله سبحانه وتعالى.

ويقال: خشعت الأصوات من هول الموقف أمام الله، ذلك أننا حين نقف أمام الله منتظرين الحساب، فإن هول الموقف يجعل الأصوات تخشع، ونحن فى الدنيا حين نقف أمام رئيس دولة أو حاكم، إذا أردنا أن نتحدث مع بعضنا البعض نتحدث همساً أو بصوت خافت مناسب للموقف الذى نحن فيه، فكيف إذا كان الوقوف بين يدى الله؟ حينئذٍ فى هذه الحالة لا يجرؤ ملوك الأرض وأعتى العتاة فيها وجبابرتها على النطق إلا همساً.

أهوال يوم القيامة.. وحوار أهل النار

ولكن هل سيكون هناك كلام وحديث بين الناس يوم القيامة؟ الجواب عن ذلك: نعم. ولذلك سمى يوم القيامة يوم التناد، حيث ينادى بعض الناس أولئك الذين أضلوهم فى الحياة الدنيا طالبين منهم أن يدفعوا عنهم العذاب، أو شيئاً من العذاب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۝ ﴾ [البقرة].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

ومن هذا نعلم أنه سيكون هناك جدل بين الكفار وبين الذين اتبعوهم، وأن الكفار سيبرأون من الذين اتبعوهم؛ بل إنه سيكون هناك حوار بين المؤمنين وغير المؤمنين وهم يساقون إلى أرض المعاد ينبئنا به القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ ﴾ [الحديد].

بل إنه سيكون هناك حوار أو كلام بين أهل الجنة وأهل النار مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وكل هذا سنتعرض له بالتفصيل فى الأجزاء القادمة من هذا الكتاب إن شاء الله ذلك أننا فى هذا لفصل نحاول أن نعطى صورة لوقوف الناس بين يدى الله قبل الحساب.

ولتكتمل الصورة لابد أن نلقى الضوء على بعض الجوانب بالنسبة لما سيحدث فى هذا اليوم العظيم؛ يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

أى: إن وجوه المؤمنين ستكون متلألئة بالنور بيضاء مليئة بالسرور، بينما تكون وجوه غير المؤمنين مليئة بالانقباض سوداء مما ينتظرها من الهم والعذاب، ويوضح الصورة أكثر؛ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥].

وذلك يرينا كيف أن الكفار والعاصين فى يوم القيامة سيشعرون بذل رهيب بعد أن كانوا فى الدنيا يملؤهم الكبر والكبرياء بما كانوا فيه من نعمة وجاه، ولكنهم فى يوم القيامة ذهبت عنهم وسائل كبريائهم الدنيوية وانتهت تماماً وسائل صلفهم ووسائل غرورهم، وأصبحوا أمام الله لا تحيط بهم إلا ذنوبهم، وهكذا يغشى وجوههم الذل.

لتصوير ما يحدث بصورة تقربه إلى الأذهان حتى لا يأتى أحد مجادلاً يوم القيامة، ويقول: يا رب لو أنك أخبرتنا بصورة ما سيحدث لكنا آمنا، ولكنك يا رب لم تخبرنا، يعطينا الله سبحانه وتعالى صوراً كثيرة لهذا اليوم فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣].

ويقول الحق جل جلاله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦].

ومعنى ذلك أن غير المؤمنين حين يرون هذا الهول الكبير يتمنون أن يهربوا من الله سبحانه وتعالى، ولكن هل يستطيع إنسان مهما هرب أن يهرب من الله؟ وإلى أين يذهب؟ والملك كله ملك الله.

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

وتكتمل الصورة أكثر بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

أى: إن الله سبحانه وتعالى يكون قد بين لنا الفرق بين صورة الظالم وصورة الكافر، فالظالم هو الذى آمن ولكنه ظلم نفسه بالمعصية، ذلك من الندم يعض على يديه؛ لأنه يعرف أن عذاباً شديداً ينتظره، أما الكافر فيعرف أنه خالد مخلد فى النار ويرى النار وهولها وحينئذ يتمنى لو أنه لم يكن مخلوقاً من بشر بل كان جماداً لا يملك فكراً ولا إرادة، لأن فكره أضله وإرادته قادته إلى العذاب ليخلد فيه، وهو يعرف أنه لن يخرج من النار، وحينئذٍ يتمنى لو أن لديه ملء الأرض ذهباً ومثله معه، فهو مستعد لأن يضحى بهذا المال كله لينجيه من العذاب.

وهذه الصورة تعطينا مدى استعداد الإنسان لأن يفدى نفسه من العذاب بأى شىء، ذلك أن المال هو العزوة فى الدنيا، والإنسان يحرص على ماله فى الدنيا ويحرسه ويدافع عنه أحياناً بحياته، ولكن هذا المال الذى له هذه القيمة الكبيرة فى الدنيا يكون فى الآخرة عديم القيمة، والله سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا هول العذاب وتأثيره على نفوس البشر حتى إن الإنسان يكون مستعدا أن يضحى بأى شىء بماله وبأولاده وبكل ما كان يعتز به فى الحياة الدنيا، لينجو فى الآخرة.

ومع أن هذه الصورة قد أعطيت لنا فى القرآن الكريم وقرأناها ونحن فى الحياة الدنيا، وكان من الواجب أن تجعلنا نفزع ونفر إلى الله ونتبع منهجه، ونلتصق بهذا المنهج حتى ينجينا الله من العذاب، فإن كثيراً من الناس يسمع وصفاً لهذه الصورة فى القرآن

الكريم فلا يهتز قلبه، لأن العذاب محجوب عنا فى الدنيا، ولو أن واحداً منا رأى عذاب الآخرة لامتنع عن كل المعاصى الدنيوية.

يبقى بعد ذلك استكمال الصورة التى رسمها القرآن الكريم بالنسبة ليوم القيامة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝﴾ [طه].

وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

وقول الله سبحانه وتعالى ﴿أَعْمَىٰ﴾ يمكن أن يكون معناه العمى الدنيوى؛ لأن الكافر يوم القيامة ستحيط به ظلمات ذنوبه، فلا يرى شيئاً ويمشى يتخبط، ويمكن أن يكون معناه أيضاً العمى المعنوى، وذلك من سوء ما ينتظره يوم الحساب، يتخبط كالأعمى تماماً، فأحيانا يأتيك خبر فى الدنيا ويكون هذا الخبر سيئاً فتقول أنا لم أعد أرى شيئاً وتمشى وأنت تتخبط، ومعناه أيضاً أن المسائل تختلط على الكافر بسبب هوى النفس الذى كان يتبعه، فلا يستطيع نظره أن يميز شيئاً فيمشى وهو يتخبط، واستخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة: ﴿نَنسَاهُمْ﴾ ليس معناه أن الله سينسى الظالم فى الآخرة فلا يحاسبه، ولكن الله ينساه من موجبات رحمته فلا يرحمه، ويظل الكافر والظالم يستغيثان، ولكن الله لا يستمع إليهما؛ كذلك ينسى الله سبحانه وتعالى الكافر من موجبات عفوه يوم القيامة، فلا يعفو عنه أبداً ويظل خالداً فى النار، ذلك أن هؤلاء الناس تأبوا على منهج الله فى الدنيا ونقضوه ولم يعملوا به، فكيف يريدون عفو صاحب المنهج فى الآخرة؟

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

بأنه لن تكون هناك شموس ولا نجوم ولا أقمار، ولكن نور الله سيأتى مباشراً إلى خلقه ينير كل شىء.

الدار الآخرة.. هى الحياة الحقيقية

وقد يسأل سائل: لماذا أعد الله سبحانه وتعالى الحياة الحقيقية للإنسان فى الآخرة؟

والجواب: لأن الدنيا دنيا أغيار يعاني فيها الإنسان ويكابد.. وليست فيها أحوال ثابتة مستقرة.. فأنت اليوم قوي، وغدا ضعيف.. وأنت اليوم غني، وغدا فقير. وأنت اليوم سليم، وغدا مريض.. وأنت اليوم حي، وغدا ميت.. لا شيء يستقر على حال.. فكل شيء فى الدنيا يتغير ويتبدل.. لماذا؟

لماذا جعل الله سبحانه وتعالى الدنيا عالم أغيار؟

حتى يلفتنا إلى أن كل شيء منه.. ونحن لا نملك شيئاً بذواتنا.

حتى نعرف أن الصحة من الله.. ولو كانت الصحة من أنفسنا ما مرضنا أبدا.. ونعرف أن الغنى من الله.. ولو كان الغنى تضعه عقولنا ما أصابنا الفقر أبدا.. ولكي نعرف أن القوة من الله.. ولو كانت من أنفسنا لما أصابنا الضعف.. وذلك حتى نتذكر دائماً نعم الله وقدرته فلا نعصيه.. ولكن نعرف أن الله سبحانه وتعالى هو الوهاب وهو الفعال.. فلا تغرنا قدرتنا ونقول فعلنا.. ولا يغرنا ما نحن فيه من النعم، فنقول كما قال قارون: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨].

إنما يريد الله أن يجعلنا خاشعين طائعين له.. ولا يحدث هذا إلا إذا عرفنا ضعفنا وقوة الله.. وعجزنا وقدرة الله.. فنتبع المنهج ونتجه إلى الله.. وكلما غرتنا مظاهر الدنيا تغيرت الحال من قوة إلى مرض.. ومن قدرة إلى عجز. علنا نفيق ونتذكر.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى هذا الكون عالم أغيار رحمة بنا.. فلو أنه ليس عالم أغيار لبعد الناس عن منهج الله.. لو رأوا في أنفسهم قوة لا تضعف.. وقدرة لا تعجز.. ومالا لا يفنى ولا يذهب.. لابتعد الكثير عن ذكر الله، ولغرتهم قوتهم، فأفسدوا فى الأرض.. وانطلقوا مع أهوائهم وشهواتهم.. وأحس كل واحد منهم أنه بقوته وقدرته قد استغنى عن الله سبحانه وتعالى.. فمادامت القوة لا تتغير ولا تتبدل.. فكثير من الشفاه تنسى كلمة يا رب.. وطغيان البشر يزداد فى الكون كله.. مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾ [العلق].

ولقد شاءت رحمة الحق سبحانه وتعالى.. أن يوجد فى الكون ما يذكرنا دائماً بأننا لا نفعل شيئاً إلا بقدرة الله سبحانه وتعالى فنحن نرى بأعيننا، ولكن الله شاء أن يخلق من

له عينان ولا يبصر.. لنعلم أن العين لا تبصر بذاتها.. ولكنها تبصر بقدرة الله.. ونمشي بأقدامنا.. ولكن الله شاء أن يوجد من له قدمان ولا يستطيع المشي.. ونسمع بآذاننا.. ولكن مشيئة الله خلقت من له أذنان ولا يسمع.. تلك أمثلة قليلة مما وضعه الله في الكون وعوضه عما فقد بميزات أخرى، ليكون ميزان العدل موجودا.. فوجد من هو أعمى ومن أعلم الناس.. ووجد من هو أصم ومن أنبغ الموسيقيين.. ووجد من لا تحمله قدماه وحكم أقوى دولة في العالم من فوق كرسي متحرك.

إذن.. فعالم الأغيار، رحمة بالإنسان، حتى لا يطغى ويبتعد عن منهج الله.. وتسخير الله لقوى هائلة في الكون لخدمة الإنسان رحمة من الله بنا، حتى نتذكر كل يوم، ونحن نرى الشمس والأرض والبحار، ونتنفس الهواء، إن هذه القوى كلها مسخرة لنا بقدرة الله.

نأتي بعد ذلك إلى النقطة الثانية.. وهي أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخص بنعمه عباده الطائعين الشاكرين.. ولكي يكون ذلك عدلاً، فلابد أن تكون هناك فترة اختبار يمر بها كل منا.. يكون فيها قادرا على المعصية ولكنه يطيع.. ويكون قادرا على الكفر - والعياذ بالله - ولكنه يؤمن.. ويكون قادرا على الإفساد في الأرض، ولكنه يصلح.. كل هذا حبا لله وليس لأي هدف آخر.. فالإنسان يصلي طاعة لله.. ويتصدق حبًا في الله ويعمل الصالحات إرضاء لله.. فمن فعل ذلك بإيمان حقيقي تقبل الله منه.. ومن فعل كل هذا، وليس في قلبه إيمان لم يتقبل منه.

وهذه النقطة لابد أن نلتفت إليها جيدا؛ لأنها أخذت جدلاً كثيرا بين العلماء..

فالناس تتساءل: أولئك الذين قدموا للبشرية اكتشافات أفادت الدنيا كلها.. ذلك الذي اكتشف البنسلين.. ذلك الذي كشف الله على يديه دواء لداء كان بلا شفاء.. أولئك الذين قدموا للإنسانية خدمات هائلة انتفع بها البشر جميعاً.. ولكنهم لم يكونوا مؤمنين هل يخلدون في النار؟

بعض العلماء قال: لا.. وقال إنهم سيدخلون الجنة.. لما قدموا من خير للبشر.. ولكني أقول لهم: ما داموا لم يكن الله في بالهم فلن يدخلوا الجنة.. لماذا؟.. لأنك إذا عملت عملاً، فإنك تأخذ أجرك ممن عملت من أجله.. ذلك قانون أزلي.. فلا يمكن مثلاً أن تبني عمارة لإنسان وتطلب أجرك من إنسان آخر.. أو تكون عاملاً في مصنع ثم تطالب صاحب مصنع آخر بأن يدفع لك أجرك.

والله أغنى الشركاء عن الشرك.. لماذا؟ لأنه لا يحتاج إلى أحد من مخلوقاته.. فالله قد خلق الكون كله، بما فيه من نعم وأرزاق ومخلوقات، بكمال قدرته سبحانه وتعالى.. ولم يستعن في ذلك بأحد.. ولا احتاج في يوم من الأيام إلى أي مخلوق،

أو مجموعة من المخلوقات، ليستكمل بها كمال قدراته تبارك وتعالى وتنزه.

ومن هنا فهو غني عن خلقه جميعاً. غنى عن أي شريك.. فإذا قصدت بالعمل وجه الله وحده.. تقبله منك وجزاك عليه.. وإذا أشركت مع الله أحداً ترك كل ما عملت لمن أشركت به، لأن الحق سبحانه وتعالى غني عن هذا كله.

لذلك نجد القرآن الكريم يؤكد على هذا المعنى في آيات كثيرة فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

ومعنى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أن هناك من يعمل عملاً صالحاً وهو لا يؤمن.. وإنما يقصد بهذا العمل إرضاء بشر.. وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝﴾ [الكهف].

وحتى تكون الدنيا دار اختبار لعمل الإنسان.. فكان لابد أن يخلق الإنسان مختارا.. مختارا في ماذا؟.. في أن يتبع منهج الله أو يعصى.. وبعض الناس يحسب - وهما - أن اختيار الإنسان في الحياة اختيار مطلق.. وتسمع كثيرا من الناس يقول لك: أنا حر على إطلاقها.

نقول له لست حرا إلا فيما يؤهلك للحياة الآخرة.. فيما يؤهلك للجنة أو النار.. إذن فاختيار الإنسان هنا اختيار اختبار.. وليس اختيارا على إطلاقه.. وإلا لو كان اختيار الإنسان على إطلاقه لوقى نفسه المرض.. فعندما يأتي إليه المرض يختار الصحة.. أو عندما تأتي إليه حوادث الدهر يختار ألا تقع عليه.. بل قد يكون له اختيار في جسده مثلاً، فيختار متى ينبض قلبه.. ومتى يتوقف.. ومتى تتنفس الرئتان ومتى لا تتنفسان.. ومتى تعمل المعدة والأمعاء ومتى لا تعمل.. وما هي العضلات التي تتحرك عندما يقف، وعندما يمشي، وعندما يجري.. وألوف من الأشياء الأخرى.

ولكن الإنسان يقوم ويجلس.. ويمشي ويقف ويجري ويبطئ الخطى.. وهو لا يعرف أي العضلات تتحرك، وأيها لا تتحرك.. كل أحداث الدنيا التي تقع على الإنسان لا اختيار له فيها.. فنجد إنساناً حريصاً على أن يركب الطائرة أو القطار.. مع أن هذه الطائرة أو القطار يحمل له الموت بعد ساعة في حادث سيقع.. ولا أحد يختار الموت.. ولكنك تجد أولئك الذين كتب عليهم الموت في حادث طائرة مثلاً هم أحرص الناس على ركوب هذه الطائرة.. بل إن بعضهم قد يسعى ويتحدث مع هذا ومع ذاك، ليحصل على مقعد في الطائرة التي تحمل له الموت.

إذن.. فاختيار الإنسان في الحياة محدود بالمنهج.. وهذه رحمة أخرى من رحمات الله على خلقه.. حتى نتذكر أننا لسنا أحرارا بإرادتنا.. ولكننا أحرار بمشيئة

الله.. وفيما أراد الله سبحانه وتعالى لنا أن نملك حق الاختيار فيه.. فلا يجعلنا حق الاختيار هذا نبتعد عن الله.. بل نعرف مهمتنا في الحياة، وهي في منهج الله وعبادته.. فلا يغرنا ذلك بأن نصدق أننا أخذنا هذا الاختيار بقوتنا نحن.. فإذا عرفنا ذلك اتجهنا إلى الله سبحانه وتعالى في اختيارنا.. فإذا قال أفعل نفعل.. وإذا قال لا تفعل لا نفعل..

إذن.. فمنهج الحياة الدنيا بما فيه من عالم الأغيار، وبما فيه من حرية الاختيار.. كل هذا كان يجب أن يذكرنا بالله دائماً.. لنعرف أن هذا كله من قدرة الله سبحانه وتعالى، وليس بقدرتنا.. فلا نعصي ولا نتجبر.. ولكن نخشع ونخضع لنفوز بالحياة الحقيقية التي أعدها لنا الله، ونفوز برضاه ونعمه.. ولنعلم يقينا أننا مهما علونا في الأرض.. ومهما بلغنا من أسباب القوة فنحن في قدرة الله لا نخرج عنها أبدا، ونحن في قبضة الله لا نستطيع أن نفلت منها.. وأن وعد الله حق.. بأن كل ما في الدنيا يذكرنا بالآخرة من أحوال تتغير، ومن اختيار محدود في المنهج.. ومن قوى أكبر منا تخدمنا وتعمل من أجلنا.

ولكن رغم كل هذا هل اتعظ الإنسان؟ هل أحس يقيناً أنه سيلقى الله في الآخرة؟ وهل أحس بالنعم التي أعدها الله له في الجنة؟ الجواب عن ذلك لا.. رغم أن كل لحظة في حياتنا الدنيوية تذكرنا بالآخرة والذين يوقنون بالآخرة يحسبون لذلك اليوم ألف حساب.. ولو أن كل إنسان منا تذكر هذه الحقيقة لصلح أمر الدنيا.. ولحاسب كل منا نفسه قبل أن يحاسبه الله سبحانه وتعالى.. ولكن الناس نسوا يوم الحساب وانطلقوا مع أهوائهم يفعلون ما تشتهي أنفسهم.. يرتكبون المعاصي ويعتدون على الحرمات، ويأخذون المال الحرام، ناسين أو متناسين أن كل هذا محسوب عليهم، ومكتوب عليهم.. فهناك الحفظة الكرام الذين يكتبون كل شيء.

هذه مقدمة كان لابد منها لإيضاح الهدف الذي نسعى إليه.. وهو أن يتذكر الإنسان أن هناك حساباً قادما بعد أن عم الفساد معظم أقطار الأرض.. وانطلق الناس بعدم إيمانهم بالآخرة يفعلون كل شيء، وأي شيء.. حاسبين أن الله غافل عما يعملون.. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

الإيمان بالآخرة.. أساس العمل الصالح

الإيمان بيوم القيامة هو الأساس فى العمل الصالح.. ففي سورة البقرة في أولي آياتها يوضح الله سبحانه وتعالى مطلوبات الإيمان فيقول: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [البقرة].

وهكذا نرى أن من مطلوبات الإيمان أن يكون هناك يقين بالآخرة.. لماذا؟.. لأنك إذا لم تؤمن بالآخرة فافعل ما شئت مادام ليس هناك حساب.. وما دمت لا تلاقي الله.. فمم تخشى؟ وماذا تخاف.

إن أساس اليقين فى الدنيا هو اليقين بالآخرة.. ذلك الذي يقف حائطاً صلباً بينك وبين كل المعاصي.. وبينك وبين كل المظالم.. فالناس ترتكب المعصية.. لأن الجزاء مستور عنا إذن لو رأينا العذاب لما اقترب واحد منا من المعاصي.. لو رأى السارق ما سيفعل به يوم القيامة لما اقترب من المال الحرام.. ولو رأى الزاني جهنم، ولو لحظة واحدة، لما استطاعت نساء الدنيا كلها أن يغرينه.. ولو رأى أي إنسان جزاء ما ينتظره على المعصية لما ارتكبها ولكن لأن الجزاء مخفي عنا.. ولأننا لا ندقق ولا نتفهم بعمق ما رواه الله سبحانه وتعالى لنا عن الآخرة، فإننا ننطلق إلى المعاصي.. تغرينا الشهوة العاجلة التي نحققها، وننسى ما هو خالد قادم.

وأساس السلوك البشري فى الدنيا هو اليقين باليوم الآخر.. ذلك اليقين الذي يرفع يد القوى عن أن يغتصب حق ضعيف.. لأنه يعلم أنه ملاقي الله يوم القيامة.. ويوقف كل قادر على أن يأخذ أموال الناس بالباطل ويبقى فى الأرض.. فإذا تذكرت الآخرة وأنت تهم بأي معصية، فإنك سترفع يدك عنها على الفور خوفاً من عقاب الله.

لو أننا تتبعنا منطق إنكار الإيمان لوجدناه كله قائما على عدم الإيمان بالآخرة.. وفي هذا آيات كثيرة في كل سورة من القرآن.. ماذا قال الكفار؟.. ما هو منطق عدم الإيمان؟.. قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

كان هذا هو منطق الكفار وعدم إيمانهم هو إنكارهم للبعث وإنكارهم ليوم القيامة.

فلما جادلهم الرسل قالوا: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجاثية: ٢٥].

وفي سورة «المؤمنون»: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ ﴾

واقرأ في سورة «المؤمنون» أيضاً: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ ﴾ وفي سورة «الصافات»: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝ ﴾.

وفي سورة «النحل»: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٣٨].

هذه الآيات هي قليل من كثير موجود في القرآن الكريم عن البعث.. يروي لنا أن قضية البعث هي أساس في الإيمان - وأنه ما من كافر إلا وينكر البعث ويتمنى ألا يكون.. ذلك أن إنكار البعث كما بينا يطلق للنفس البشرية شهواتها بلا حساب.. وإذا كانت قضية البعث هي القضية اليقينية الأولى.. فإننا نجد كل المذاهب التي انحرفت عن الإسلام تحاول إنكار العذاب في الآخرة بطرق شتى.. فمنها من يحلل بعض الذنوب والمعاصي.. ليشعر العاصي بشيء من الاطمئنان يحلل به معصيته.. وأما إنكار التعذيب بالنار.. والقول بأن رحمة الله تحيط بجهنم.. كل هذا خروج عن المنهج.. وهو في الحقيقة محاولة للهروب من حقيقة الحساب والعذاب في الآخرة.

والكافر حقيقة لا يؤمن بالآخرة.. ولكن الموت الذي يراه أمامه كل يوم يملأ حياته بالرعب والفزع، وينغص عليه عيشته.. وخصوصاً أنه يرى الموت فيمن لا يعرف.. وفيمن يعرف، وفي أقرب الناس إليه.. وإيمان الفطرة يلح عليه دائماً.. وملكات الإيمان التي خلقها الله في نفسه تتصادم مع الكفر الذي ملأ به حياته زيفاً، ولذلك فهو يحاول أن يخدع نفسه دائماً بأنه لا شيء بعد الموت!.. فهل يكون الإنسان سعيداً حتى إذا وصل إلى ذلك؟

وما معنى الحياة إن كانت تذهب وتنتهي بلا هدف ولا غرض.. إذا كنا نولد ونموت في عالم كله امتحانات إيمانية للنفس.. فلو أنه ليس هناك بعث.. لكان الكافر بالله هو الفائز في هذه الحياة.. لأنه أعطى نفسه كل شهواتها وارتكب كل المعاصي.. ثم بعد ذلك مضى ولا شيء.

ولكن هل يمكن أن يحدث هذا؟.. هل الله سبحانه وتعالى يخلق كل هذا الكون ليتمتع به من يكفر بالله؟.. ولا ينال الطائع إلا أنه يحمل نفسه منهج الله، ويحرم على نفسه الشهوات والمعاصي.. ثم بعد ذلك لا شيء. إن هذا المنطق يهدم فكرة الخلق نفسه.. ويهدم أساس وجود الحياة الدنيا.. وأمنية كل كافر مسرف على نفسه هي ألا يكون هناك يوم حساب.. وألا تكون هناك آخرة.. لكنه لو جلس قليلاً وتأمل بالمنطق

وحده . . لوجد أن هذا الكلام لا يتمشى مع العقل . . وأنه ما دام هناك خالق وما دام هناك كون . . فلابد أن تكون هناك غاية . . ولا توجد غاية لهذا الكون إلا إذا وجد يوم القيامة . . ووجد الحساب والعقاب والجنة والنار . . تلك هي الغاية من الكون كله .

لكي تكتمل الصورة . . فإننا لابد أن نعرف . . أن الله سبحانه وتعالى أراد لهذا الكون منهج العدل . . ولذلك فقد قيد في منهج السماء هوى النفس الذي هو أساس الفساد . . فكل ما يستنبطه الإنسان، وليس فيه هوى النفس . . تركه الله سبحانه وتعالى في الكون بلا منهج . . فالعلوم الصم التي مكانها المعمل لا يتدخل فيها منهج الله إلا أن يحيطها بقيم أخلاقية تحميها من الهوى . . فالكيمياء مثلاً علم أصم يتسابق عليه العالم أجمع . . فتسرق أسراره الدول من بعضها البعض . . وأنه ليس فيه هوى نفس . . ولذلك فهو موحد في العالم كله . . لا توجد كيمياء إنجليزية . . وأخرى فرنسية . . وأخرى سوفيتية . . بل كلها علم كيمياء . . يحيطه المنهج بقيم أخلاقية ليكون علماً خالصاً قائماً على حقيقة . . ليس فيه غش ولا تدليس . . فإذا انتقلنا إلى المناهج السياسية التي يدخل فيها هوى النفس . . وجدنا الصراع . . فأمريكا تحرم وتجرم المبادئ السياسية للاتحاد السوفيتي . . والسوفييت يوقعون عقوبات تصل إلى الإعدام على كل من يعتنق المبدأ الرأسمالي الأمريكي . . وهنا ينزل المنهج ليقضي بين الناس في الأهواء التي هي أساس الصراعات في الدنيا . . فيقول لا رأسمالية ولا شيوعية، وإنما منهج السماء يحكم بين الجميع . . لماذا؟

لأن الله سبحانه وتعالى لا يميز أحدا عن أحد . . ولا يفضل خلقاً على خلق بحيث يبيح لبعض الناس ما يحرمه على البعض الآخر . . فعدل الله مطلق . . وإذا تأملنا في تشريعات الله نجد فيها حماية للضعيف من القوي، وحماية للقوي أيضاً . . قد يكون هذا كلاماً متناقضاً . . ولكنه في الحقيقة كلام متكامل . . وهذا التكامل لا يكون إلا في منهج الله . .

إذا أخذنا مثلاً حد السرقة . . هذا الحد يحمي الضعيف من أن يعتدي عليه من القوي فيسرق من ماله . . وهو عاجز عن أن يدافع عن نفسه، وهذا ما نراه في كل مجتمع . . وقد يكون للقوي منطق آخر، وهو أنه يستطيع أن يغتصب مال الضعيف بدون أن يمنعه أحد أو يصيبه أذى . . فلماذا حرم الله عليه ذلك؟ . . نقول إن هذا منطق عاجز؛ لأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرم السرقة فإنه منع القوي من أن يأخذ مال الضعيف . . ولكنه في الوقت نفسه منع المجتمع كله من أن يأخذ مال القوي، والإنسان مهما كان قويا فإنه أمام المجتمع ضعيف . . وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى ثورات المجتمعات، وهي ضد الأقوياء والطغاة . . فلا تحدث ثورة ضد ضعيف لأنه لا حول له ولا قوة .

ماذا يحدث في حالة الثورات؟ . . يصبح ذلك القوي الذي كان يفاخر بقوته ضعيفاً أمام المجتمع، لا حول له ولا قوة . . وينطلق الناس ينهبون ثرواته ويعتدون على أمواله وهو لا حول له ولا قوة . . يبحث عن مكان يختبئ فيه . ويتمنى لو أنهم أخذوا أمواله كلها وتركوه حيا .

إذن.. ففي هذه الأحداث تتلاشى قوة أقوى الأقوياء أمام المجتمع.. والله سبحانه وتعالى يرينا قوة المجتمع المدمرة أمام أقوى الجبابرة.. لنعرف من أمثلة قد تحدث على فترات.. يرينا قوة المجتمع الذي يحمينا منه بمنهجه.. ولو استحضر أحدنا هذه الصورة وما يمكن أن يحدث له لسجد شكرا لله سبحانه وتعالى؛ لأنه حماه من المجتمع بمنهجه الذي حرم على الجميع أن يمدوا أيديهم إلى أمواله.. لأن منهج الله إن كان قد حرم القوي من مال محدود يملكه الضعيف.. فإنه حرم على المجتمع أن يفتك بالقوي، وأن يأخذ أمواله، وربما حياته.. إذن فالمنهج ليس قيدا على أي فرد.. ولكنه حماية لكل الناس.. ولو نظر أي إنسان مهما كانت قوته إلى أبعد من قدميه لأدرك أن القيد الذي وضعه الله هو قيد له ولمصلحته، وليس قيدا عليه.

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى جريمة الزنى.. نجد أن بعض الناس يريد أن يحلها على أساس أنها حرية شخصية.. ولقد جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وقال له يا رسول الله: أنا أريد أن أومن ولكني أحب النساء، فهل تبيح لي الزنى.. ولم يغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ولم يأمر بجلده أو رجمه.. وإنما قال له، وهو المعلم والحكيم: «أترضى هذا لأمك؟».. قال الرجل: لا.. قال: «أترضاه لأختك؟».. قال الرجل: لا.. قال: «أترضاه لزوجتك؟».. قال الرجل: لا.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.. «وكلنا كذلك يا أخا العرب»[1].. وهكذا عرفنا من هذا الحديث حكمة بالغة من حكم تحريم الزنى.. وهي أن الله سبحانه وتعالى حينما حرم الزنى علينا كان يحمي بذلك أعراضنا.. يحمي أمك وأختك وزوجتك من أن يزني بها أحد.. وهكذا كان القيد لصالحك وليس قيداً عليك.. لأنه حرم على المجتمع كله أن يقترب من أمك أو أختك أو زوجتك.. ولك أن تتصور الحال لو أن الله أباح للناس.. كل الناس الاعتداء على أعراضك.. ماذا كان يمكن أن يحدث؟

وهكذا إذا استعرضنا منهج الله في أفعل ولا تفعل نجد أنه حماية للناس كل الناس.. ولو فكر أي واحد منا تفكيرا سليما لطالب بهذا المنهج وسعى إليه.. ودعا الله أن ينزله، وأن يشرعه.. لأن فيه الضمان والأمان لكل الناس.. ولكن الذي ينكر منهج الله ويحارب منهج الله.. إنما يريد أن يبيح لنفسه ما يحرمه على غيره.. فهو يريد أن يعتدي على أموال الناس.. ولا أحد يعتدي على ماله.. وهو يريد أن يعتدي على أعراض

---

(١) روى البيهقي في الكبرى عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ائذن لي في الزنى. قال: فهم من كان قرب النبي صلى الله عليه وسلم أن يتناولوه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دعوه، ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم: ادنه، أتحب أن يفعل ذلك بأختك؟ قال: لا، قال: فبابنتك؟ قال: لا، فلم يزل يقول بكذا وكذا كل ذلك يقول: لا. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «فاكره ما كره الله، وأحب لأخيك ما تحب لنفسك».

الناس.. ولا أحد يعتدي على عرضه.. ولذلك فهو لا يريد الحق.. لأن الحق والعدل هما مساواة بين الجميع وليس تمييزاً لأحد على أحد بالباطل.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

على أن البعض يحاول أن يلصق بمنهج الله أنه ترك للدنيا.. فمادامت الحياة هي الآخرة.. ومادامت هذه دنيا أغيار لها نهاية، طالت أم قصرت، فلماذا العمل، ولماذا إجهاد النفس في شيء سيفنى؟.. وفي شيء سيزول وينتهي؟

نقول لهؤلاء جميعا الذين يرددون هذا الكلام، وما أكثر من يرددونه: إن هذا غير صحيح.. ولو أن الله سبحانه وتعالى كان يريد من المؤمنين به ألا يعملوا لما فرض الزكاة.. ولما أوجد الصدقة.. ولما وضع في منهجه تشريعات التوريث فيما يتركه الإنسان بعد وفاته.. ولكن وجوب الزكاة وفضلها.. معناه أنه لابد أن يتحرك كل مؤمن في الحياة.. حركة تزيد على حاجته، وإلا فمن أين سيدفع الزكاة.. وكلما زادت حركته زاد مقدار الزكاة الذي سيدفعه وكلما ازدادت حركة حياته أكثر استطاع أن يتصدق بجزء من ماله.. فزاد ثوابه عند الله، وزادت حسناته.. وكلما ترك لأولاده شيئاً يعينهم على حياتهم المستقبلة كان ذلك أفضل بشرط أن يكون مالاً حلالاً زكيت عنه.. ولو أن منهج الله حقيقة لا يحث على العمل والتحرك في الحياة بأقصى طاقة ممكنة، بحيث تزيد حركة حياتك عما تحتاج إليه أنت وأسرتك.. أنت وزوجك وأولادك ما فرضت الزكاة، وما وجبت الصدقة..

إذن.. فكل من يقول إن منهج الله ترك للعمل لأن الدنيا فانية.. نقول إنه ترك للعمل غير الصالح وحث على العمل الصالح.. لأن مهمة الإنسان هي عمارة الأرض.. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما أكل أحد طعاماً قط خيرا من أن يأكل من عمل يده»[1]. ويقول صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بيد أحد الصحابة وقد أحس بأنها خشنة الملمس من العمل.. «هذه يد لا تمسها النار»[2]. ولو أن منهج الله فعلاً كان يدعو إلى عدم العمل وترك الدنيا للكافرين.. لكان أول من طبقه هم المسلمون الأوائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ولكن هؤلاء رضي الله عنهم جميعاً فهموا المنهج الفهم الصحيح ولذلك عملوا وجاهدوا وأنشأوا حضارة من أعرق الحضارات.. التي أخذت الدنيا كلها عنها أساس الحضارة الحديثة.

---

(١) رواه البخاري [٢٠٧٢] عن المقدام رضي الله تعالى عنه.

(٢) ذكر ابن حجر في الإصابة [٣٢٠٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من تبوك استقبله سعد بن معاذ الأنصاري فقال: من أثر المر والمسحاة أضرب وأنفق على عيالي، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم يده، وقال: وهذه يد لا تمسها النار.

ولذلك فإن الذين يمتنعون عن العمل هم مخالفون لمنهج الله.. والذين يريدون أن يعيشوا على فتات المجتمع في حقيقتهم يسيئون للمنهج ولا يطبقونه.. فمنهج الله يريد أمة قوية قادرة تسود الأرض.. ولا يريد أمة من الضعاف الجياع الذين يسألون الصدقة ويعيشون مستضعفين في الأرض.. تلك هي الحقيقة التي لابد أن يعيها الجميع.. وأجر الإنسان العامل هو أجر المجاهد.. مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فقد كان جالساً مع أصحابه ذات يوم، فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى، فقالوا: ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقولوا هذا. فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين، أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله»[1].

إلى هنا ونأتي إلى ختام الفصل الأول.. وقد بينا فيه كيف أن الله سبحانه وتعالى برحمته قد وضع منهجاً في الحياة الدنيا.. يذكرنا دائماً بقوته وعجزنا.. ويذكرنا بفضله علينا فيما خلق لنا من النعم.. حتى لا تغرنا قوتنا، ونحسب أننا في غنى عن الله سبحانه وتعالى..

وكيف أن الإنسان الذي خلقه الله مختاراً.. لم يعط له الاختيار المطلق.. وإنما أعطاه الاختيار في المنهج الذي بينه ووضحه له.. حتى يكون الحساب عدلاً في الآخرة.. وكيف أن الدنيا هي دار اختبار.. وأن الحياة الحقيقية التي أعدها الله للإنسان هي الحياة في الجنة.. حيث ينعم بلا حدود.. وحيث يعيش حياة خالدة لا تنتهي أبداً.. ويعيش في نعمة الله فلا تزول عنه بأن تذهب وتنتهي.. ولا يزول عنها بأن يموت.

وبينا أن اليقين بالآخرة هو أساس الإيمان.. وأن كل كافر بمنهج الله يحاول أن ينكر يوم الحساب.. ويحاول أن ينكر أن هناك جزاء في الآخرة.. لأنه يريد أن يعيش تبعاً لأهوائه وشهواته.. وهذا يتنافى مع الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض.. والذي هو صفة من صفات الله سبحانه وتعالى.

وبينا كيف أن منهج الله قد وضع لحماية الناس كل الناس.. فهو يحمي الضعيف من القوي.. ويحمي القوي من المجتمع.. ولو أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل منهجاً للحياة في الأرض لطلبنا نحن هذا المنهج.. لأنه هو الوسيلة الوحيدة ليعيش الإنسان آمناً مطمئناً في الأرض.. وهو الطريق إلى الحياة الطيبة.

❁ ❁ ❁

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير [١٩/ ١٢٩/ ٢٨٢] عن كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنه، وفي المعجم الأوسط [٧/ ٥٦/ ٦٨٣٥].

الحياة.. وحياة كل شيء

قبل أن نبدأ في مشاهد الآخرة.. وكيف سيشهد على الإنسان جلده وسمعه وبصره مصداقاً لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [فصلت].

وقبل أن نتحدث عن كيف أن الحجارة ستحرق من عبدها.. لابد أن نتحدث عن معنى الحياة.. وهل الحياة في الإنسان فقط.. أم في الإنسان والحيوان.. أم أنها في كل ما خلقه الله في الدنيا حتى لو كنا لا نرى فيه أية حياة بمفهومنا نحن.. ولكن كل شيء في هذا الكون فيه حياة.

الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون.. هو خالق الحياة فيه.. ولكي نفهم معنى الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [فصلت].

لابد أن نعرف معنى الحياة والمقصود بها.. وهل هي الحياة بمفهومنا أم أن الحياة في الكون بمفهوم آخر يختلف تماماً عن مفهومنا..

نحن نفهم الحياة على أساس أنها حس وحركة.. الإنسان فيه حياة لأنه يحس ويعقل ويتحرك.. والحيوان فيه حياة أيضاً لأنه يحس ويتحرك.

أما النبات فهناك من يقول: إن فيه حياة لأنه ينمو ويكبر ويثمر ويذبل.. فيه نوع من التغيير والحركة.. حركة النمو. إذن ففيه نوع من الحياة.. أما الجماد في مفهومنا فليس فيه حياة، لأنه لا يحس ولا يتحرك ولا ينمو.

وأجناس الكون أربعة.. أدناها الجماد، وتنتهي حياته المنظورة لنا بخاصة النمو، وهي أولى خواص النبات.. لذلك نجد عدداً من الشعب المرجانية وهي جماد تنمو في البحر.. أما النبات فيبدأ بخاصية النمو التي انتهى عندها الجماد وينتهي بخاصية الحس التي يتميز بها الحيوان.. فتجد بعض النباتات إذا لمستها أحاطت بك، أو أغلقت أوراقها، مثل ما يطلق عليه الناس - الست المستحية - وهكذا تنتهي الحياة في النبات عند الحس.. وتبدأ الحياة في الحيوان بالحس والحركة.. وتنتهي بشيء من التمييز، وهو من

صفات العقل.. فنجد أن أرقى الحيوانات، وهي القردة، تستطيع - إلى حد ما - أن تقوم ببعض الحركات التي فيها نوع من التمييز.. وهو ما تبدأ به حياة الإنسان.. فلا يوجد إنسان ليس له عقل مميز.. وتنطلق مظاهر الحياة في الإنسان مع العقل إلى آفاق بلا حدود.. وتظل ترتقي وترتقي مع ارتقاءات العقل إلى ما شاء الله.

هذه هي مظاهر الحياة كما نفهمها نحن.. فكل جنس من أجناس الكون - جمادا كان أو نباتا أو حيوانا أو إنسانا - يبدأ عند النهاية التي يصل إلى الجنس الذي قبله.. ولكن هل مفهومنا في الحياة صحيح؟ وهل الحياة هي الحس والحركة فقط؟ وهل خلق الله الأشياء في الدنيا جامدة ثم يجعلها يوم القيامة تنطق وتتكلم؟ فالحياة في الدنيا، وهي التي يشارك فيها المؤمن والكافر، قصارى ما تعطينا الحس والحركة. فهل هذه حقيقة هي مظاهر الحياة؟ أم أن هناك مظاهر أخرى وأسرارا أخرى في الكون لا ندري عنها شيئاً.. في معنى الحياة يحكمنا القرآن الكريم.. ماذا قال الله سبحانه وتعالى.. اقرأ قول الحق: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

إذا تدبرنا في هذه الآية نكون قد عرفنا من القرآن أن الهلاك مقابل للحياة.. أو ضد الحياة.. هناك حي وهناك من هلك.. أي لا حياة له.. يأتي الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى ليقول: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وما دام الله سبحانه وتعالى قال كل شيء سيصبح هالكاً.. إذن فكل شيء فيه حياة.. أو ما يقال عنه شيء فيه حياة.. لأن الحق سبحانه وتعالى يقول عندما تأتي القيامة سيهلك كل شيء إلا وجه الله.. إذن فقبل ساعة القيامة يكون كل شيء فيه حياة.. وطبعاً قبل ساعة القيامة يكون هناك جماد ونبات وحيوان وإنسان.

فإذا أضفنا إلى ذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

يكون كل ما في الكون مسبحا لله.. يقول بعض العلماء أن كل شيء يسبح تسبيح دلالة على الخالق.. نقول لهم لو أنه كان تسبيح دلالة نكون قد فهمناه.. ولكن الله يقول: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إذن.. فنحن لا نفهم هذا التسبيح، إذا وصلنا إلى هذه النتيجة نكون قد عرفنا أن كل شيء في الكون له حياة.. وهذه الحياة تناسب مهمته.. إذن فالأشياء التي نراها أمامنا ساكنة لا تنطق ولا تتكلم.. هي في الحقيقة تنطق وتتكلم ولكننا لا نسمعها[1].

---

(١) قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ =

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت: ٢١].

هنا لابد لنا من وقفة طويلة عند مفهوم الحياة.. فنحن نفهم الحياة على أنها حس وحركة مرئية لنا.. ولكن الحقيقة أن هناك حسا وحركة في الكون مرئية لنا.. وهناك حس وحركة غير مرئية لنا.. ولنأخذ الجماد أولاً باعتباره أكثر الأشياء التي يعتقد العلماء أنه ليس فيها حياة في منطق الإنسان.. وسأضرب هنا أمثلة بسيطة جداً حتى نكون جميعاً عارفين بما يحدث.

نحن حين نريد أن نمغنط قضيبا من الحديد ماذا نفعل؟ نأتي بمغناطيس ونمر على قطعة الحديد في اتجاه واحد عدة مرات ونظل نقوم بهذه العملية لفترة حتى تتم مغنطة قطعة الحديد، ماذا حدث؟ أولاً دخلت المغناطيسية إلى قطعة الحديد غير الممغنطة، نحن لم نر شيئا ولكننا شهدنا أثر المغناطيسية على قطعة الحديد التي أتينا بها فأصبحت تجذب الأشياء. هذه واحدة، قوة معنوية ظهرت - لم نر شيئا يتغير أمام أعيننا ولكن مع ذلك فقد تغير شيء ما في قطعة الحديد التي أجرينا عليها التجربة.. بحيث أصبحت ممغنطة بعد أن كانت غير ممغنطة فإذا ارتقينا بالتجربة، وجئنا ببرادة الحديد في أنبوبة اختبار، ومررنا عليها عدة مرات بالمغناطيس في اتجاه واحد ذرات القضيب الحديدي قامت بالحركة نفسها، ولكن في داخل الجسم الصلب؛ ونحن ننظر إلى هذا الجسم لم نلاحظ فيه أي حركة، ولكننا حين جعلناه جزئيات صغيرة بحيث أصبح برادة حديد رأينا الحركة والتبدل الذي حدث؛ ولكن السؤال ظل مستمرا وهو كيف دخلت المغناطيسية واخترقت هذا الجسد الصلب القوي وهو الحديد وأحدثت فيه حركة تحولت ذراته وتجمعت في اتجاه واحد؟ هذا لم يصل إليه العلم حتى الآن؟

ولكن إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد كشف لنا من علمه ما جعلنا نرى برادة الحديد وهي تتحرك في أنبوبة اختبار وتتشكل وتتبدل؛ إنما ليرينا أن الشيء الساكن والجامد وهو الجماد يمكن أن تكون فيه حركة مستمرة ولكننا لا نراها؛ لأنها فوق طاقة أبصارنا، إذن.. فالجماد فيه حركة ولكننا لا نراها.

وقبل أن نمضي في هذا الحديث لابد أن نبين أن وجود الشيء مختلف تماما عن إدراك وجوده، فقد يوجد الشيء ولا ندركه مثل ملايين المخلوقات في الكون التي تتحرك وتتكلم وتعيش ولا ندركها بأبصارنا، ولا نسمع أصواتها.. فالجن مثلاً تعيش وتتناسل

= مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ١، الصف: ١]، وقال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الجمعة: ١]، وقال الحق تبارك وتعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ [ص: ١٨].

وتتحدث مع بعضها البعض ولها حياة ولكننا لا نراها.. والملائكة مثلاً موجودة تؤدي مهمتها في الكون، ولكننا لا نراها.

هذه قضية هامة لابد أن نتحدث عنها لنفهم معنى الحياة في الجماد، وهي قضية غيبية.. فوجود الملائكة والجن أخبرنا به الله وأخبرنا بأننا لا نراهم في قوله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

إذن.. فهناك من يرانا ولا نراه.. وهذه كما قلت قضية غيبية.. وقد يأتي أي إنسان ويقول لك أنا لا أومن بالغيب.. ولا أصدق أن هناك مخلوقات لا نراها.

نقول له: إن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده جعلته يضع في الكون قضايا حسية.. تقرب إلى أذهاننا صور الغيب رحمة بعقولنا.

فلنأخذ من العالم المادي ما يقرب لأذهاننا صورة عالم الغيب.. إذا أخذنا الجراثيم نجد أنها تعطينا الصورة.. كيف؟ إن الجراثيم مثلاً كانت موجودة في الكون تؤدي مهمتها.. وكنا نرى آثار هذه المهمة في أعراض كثيرة.. ولكننا لم نكن نرى الجراثيم التي تسبب هذه الأعراض.. ثم تقدم العلم الذي كشفه الله للبشر.. واخترعت الميكروسكوبات التي تكبر مئات المرات.. ووصلت إلى أنها تكبر الصورة ملايين المرات.. فماذا حدث؟.

رأينا هذه الميكروبات.. ورأيناها بصورتها البشعة.. مخلوقاً عجيباً غاية في الدقة.. وفيه حياة ويتوالد ويتكاثر ويأخذ أشكالاً مختلفة.. بل إن الميكروب فيه حياة متكيفة.. بمعنى أنه بعد أن تستخدم ضده دواء معيناً.. يتكون من جسده ما يقاوم هذا الدواء، ولا يجعل له فاعلية.. ولذلك فلابد من فترة إلى فترة.. أن يغير الأطباء الدواء، لأنه لم يعد مؤثرا على الميكروب فقد تحصن ضده.. ويلفتنا هذا إلى دقة خلق الله سبحانه وتعالى.. فالله خلق في هذه المساحة الصغيرة التي لا ترى بالعين المجردة.. وربما لا ترى بمجهر صغير.. خلق في هذه المساحة الدقيقة غاية في الدقة مخلوقاً له حياة كاملة.. فيها غذاء، وفيها تناسل، ولها دورة حياة متكاملة.

والسؤال هنا: هل وجد هذا الميكروب أولا، ثم أدركنا وجوده؟ أم أنه لم يوجد إلا ومعه إدراكنا لهذا الوجود؟ والجواب طبعا: أنه وجد أولا وكان يقوم بمهمته في الحياة قبل أن ندرك وجوده، ولو أننا أدركنا آثار هذه المهمة وبدأ العلماء يبحثون عن سبب هذه الآثار ما أدركنا هذا الوجود.. ولكن عدم إدراكنا لوجود هذا الميكروب لم يكن يعني أنه غير موجود.

إذن.. فالوجود شيء وإدراك الوجود شيء آخر يختلف تماما، وهذا ينطبق على أشياء كثيرة في الكون لا تعد ولا تحصى؛ فكأنه قضية عامة وليس قضية خاصة.. إذا وضعت نقطة الماء أو نقطة الدم تحت الميكروسكوب فستجد فيها أشياء عجيبة، كائنات

حية تتحرك وتعيش وتتناسل وتؤدي مهمة في الحياة بدون أن تعرف عنها شيئا أو تدرك وجودها. . فإذا اتجهت بالتليسكوب إلى السماء رأيت نجوما لم تكن تراها بعينك المجردة. . هل هذه النجوم التي رأيتها بالتليسكرب كانت موجودة أم أنها خلقت ساعة أدركت وجودها؟

الجواب الذي يوافق عليه كل علماء الأرض: أنها كانت موجودة تؤدي مهمتها فى الحياة بدون أن تدرك أنت وجودها.

ولما تقدم العلم الذي كشفه الله للإنسان فى الأرض. . واخترعت آلة التليسكوب التي تقرب الأشياء. . أصبح من الممكن رؤية هذه النجوم لأن الآلة الجديدة أعانت العين وجعلت رؤية هذه النجوم في مقدورها.

إذن. . فهذه النجوم أدت دورها ربما لملايين السنين دونما أن تحس بها، أو تعرف شيئاً عن وجودها أو حياتها. وإذا كان وجود الشيء كما ثبت علميا مما قلناه - على سبيل المثال - وليس على سبيل الحصر. . إذا كان وجود الشيء مختلفاً عن إدراك وجوده. . فإذا حدثت عن شيء لا تراه فلا تنكر وجوده. . وإذا كان المتحدث هو الله سبحانه وتعالى. . فالشيء ثابت الوجود كأنك تراه(١).

نعود بعد ذلك إلى حياة الجماد. . وقد أثبتنا بتجربة علمية بسيطة وسهلة أن هناك حركة فى الجماد لا تستطيع أن تدركها بعينك. . ولكنك قد تقول: إن هذه الحركة مجرد تغير ذرات. . نقول لك إن المسألة أعمق من ذلك بكثير. . فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

إذن. . فالسماء والأرض، وهما كما ترى بعينك المجردة ليس فيهما حياة، تبكيان. . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا مات الصالح بكى عليه موضعان: موضع سجوده، وموضع صعود صلاته ودعواته».

إذن. . فالأرض بنص القرآن تبكي، ولكننا لا نسمع بكاءها. . ومادام هناك بكاء فلابد أن يسبقه حس وعاطفة. . إذن فهذا الجماد الذي تعتقد أنه لا حياة فيه. . فيه حس وفيه عاطفة. . ولكنك لا تعرف عنهما شيئاً ولا تدرك وجودهما. . فإذا سمعت هذا فلا تنكره. . ولكن قل إن الوجود شيء، وإدراكه شيء آخر. . ورسول الله صلى الله عليه وسلم سمع تسبيح الحصى في يديه(٢). . ولكن هل معنى أن الرسول صلى الله عليه

---

(١) روى أحمد فى المسند [٢/ ١٣٢] عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض جسدي فقال: اعبد الله كأنك تراه، وكن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط [٤/ ٢٤٥/ ٤٠٩٧]، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد [٥/ ٣٢٨]: =

وسلم سمع هذا التسبيح والحصى في يده.. هل معنى هذا أن الحصى لا يسبح، سواء كان في يد نبي أو في يد غيره من البشر.. أو إذا لم تمسسه يد.. مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

إذن.. فالجبال تسبح.. والحصى يسبح.. وكل شيء في الكون دائم التسبيح لله سبحانه وتعالى.. ولكننا لا نفهم هذا التسبيح ولا نفقهه.. والسماء تبكي والأرض تبكي وقد تضحكان، ولكننا لا ندرك هذا.. بل إن الأرض وهي أمامنا جماد فيه حياة.. لها حياة ذكر لنا القرآن الكريم لمحة عنها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

إذن.. فالأرض لها حياة مع النبات؛ فهي تهتز وتصبح هشة حتى تخرج ساق النبات الصغير من داخل الصخرة الصلبة في الجبل.. كيف اخترقت هذه الساق اللينة هذا الصخر الصلب؟ هناك حياة وتفاعلات تمت من دون أن نراها بقوانين خلقها الله فجعلت هذه الساق الضعيفة الصغيرة تخترق هذا الحجر الصلب وتخرج منه؛ بينما لو جئت أنت بفأس من الصلب أو آلة حادة ربما تفشل في تحطيم هذا الصخر أو إحداث ثقب فيه؛ ولكنه كون كل شيء فيه حي ويؤدي مهمته، ومهمة الصخرة أن تلين وتصبح هشة تخرج منها ساق النبات دونما تدخل يد إنسان ليتم ذلك، إذن.. فهناك حياة في الجماد.

ولنتأمل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

إذن.. فالحجارة التي تحسبها لا حياة لها.. يتفجر منها الأنهار.. ويخرج منها الماء.. وتهبط من خشية الله.. أليست هذه ألواناً من الحياة نحن غافلون عنها.. وهكذا بين الله سبحانه وتعالى لنا في القرآن الكريم ألواناً من الحياة في الجماد.. ولكنه لم يحطنا بكل تفاصيل حياة الجماد.. وإنما أعطانا آيات ترينا أن الجماد له حس وله حركة.. وله

= رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن أبي حميد وهو ضعيف وله طريق أحسن من هذا في علامات النبوة، وإسناده صحيح.

مهمة فى الحياة.. وله حياة ليؤدي هذه المهمة.. وعرفنا أن الجماد يبكي مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

وعرفنا ألوانا أخرى من حياة الجماد، منها اهتزاز الأرض إذا نزل عليها الماء ليخرج منها الزرع.. وهكذا نجد أن حياة الجماد حياة كاملة.. فيها لغة وهي التي يسبح بها الجبال والحصى.. وفيها انفعال إذا نزل الماء على الأرض الساكنة.. وفيها تفاعل مثل ذرات الحديد والمغناطيس.. وفيها دورة حياة عرفنا لمحات منها والباقي لم يكشفه الله لنا.

نأتي بعد ذلك إلى النبات.. نقول إن النبات فيه نوع من الحياة هو خاصية النمو.. ولكننا نقول إن الحياة فى النبات فيها كل صفات الحياة.. فالنبات يسبح، إذن فهناك لغة.. والنبات له خاصية النمو.. ولكن هذا ليس كل شيء.. فالنبات له خاصية الاختيار.. أى إنه يختار بين البدائل.. قد يبدو ذلك غريباً لأن الذي يختار هو الإنسان.. ولكن الإنسان اختياره بعقله.. وهو قادر على أن يفعل أو لا يفعل.. ولكن النبات اختياره اختيار غريزي.. كيف؟

عندما نروي الأرض نرويها بالماء لينبت الزرع.. وينزل الماء ليختلط بمواد الأرض.. وتمتص الغذاء جذور فى التربة لتعطيها للنبات.. هذه هي طريقة تغذية النبات.. ولكن كيف يتم ذلك؟

قالوا إنه يتم بواسطة نظرية الضغط الأسموزي.. أى إن الضغط خارج شعيرات الجذور يكون أعلى من داخلها، فيدخل الماء مختلطاً بالمواد المغذية للنبات داخل الشعيرات ليغذي النبات.. وجاءوا لنا بعدد من هذه الأنابيب الشعرية، ووضعوها في إناء فدخل السائل فيها وارتفع.. وقالوا هذه النظرية هي التي يتم على أساسها غذاء النبات، ولا يوجد أي نوع من الحياة.. نقول لهم.. هذه النظرية صحيحة، ولكن ينقصها شيء واحد.. هو الاختيار الذي يتم.. لو أن كل النباتات كانت تنبت ثمرا واحدا لكانت هذه النظرية وحدها هي سر حياة النبات.. ولكننا نزرع الأنواع المختلفة من النبات.. هذا حلو، وهذا مر، وهذا حريف.. نزرعها كلها في أرض واحدة، ونسقيها بماء واحد.. ومع ذلك تنبت هذه الثمار المختلفة فى الشكل واللون والطعم[1]. من الذي جعل كل

---

(١) وذلك قوله تعالى في [سورة الرعد: ٤]: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ في الكلام حذف؛ المعنى: وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات؛ كما قال: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]. والمعنى: وتقيكم البرد، ثم حذف لعلم السامع. والمتجاورات المدن وما كان عامرا، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر. متجاورات. أي: قرى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات، ثم تتفاوت في الثمار والثمر؛ فيكون البعض حلوا، والبعض حامضا؛ والغصن=

جذر نبات معين يمتص من الأرض تلك العناصر التي تعطي نوع الثمرة التي تنبتها هذه الشجرة بالذات؟ كلها جذوع متساوية فى التكوين تقريبا.. ولكن لكل واحد منها عناصر معينة.. يأخذها من الأرض لتعطي تكوين الثمرة.. هذه حلوة فتأخذ من الأرض العناصر التي تعطي الحلاوة للثمرة.. وهذه مرة فتأخذ من الأرض العناصر التي تعطي المرارة.. وهذه لونها أصفر فتأخذ من الأرض العناصر التي تكون صفراء اللون.. وهذه لونها أحمر فتأخذ من الأرض العناصر التي تكون احمرار اللون.. ألوف من الثمر المختلف الألوان.. وكل جذر يأخذ من الأرض هذه العناصر بالذات التي تكون الثمرة التي يثمرها.. بل وأكثر توجد أنواع مختلفة من الثمار.. من ذلك من النوع الواحد من التفاح مثلاً يوجد التفاح الأحمر، والتفاح الأصفر، والتفاح الأخضر، والتفاح الذي يختلط فيه أكثر من لون.. وكل جذر يأخذ من الأرض المواد اللازمة لتكوين هذه الثمرة بالذات دونما تغيير أو تبديل.. ولا يضل جذر أبدا عن المواد اللازمة للثمرة التي تنبتها الشجرة.. بل وأكثر من ذلك فإن امتصاص الجذر للمواد اللازمة للثمرة يختلف فى المراحل المختلفة.. ففي أول الأمر يمتص المواد التي تعطى للثمرة النمو، ولكن تبقيها جامدة.. لونها أخضر لا طعم لها ولا رائحة.

فإذا تمت المرحلة الأولى أعطاها المواد التي ترقق محتويات الثمرة.. حتى تصبح صالحة للأكل.. ثم بعد ذلك يعطيها المواد اللازمة للون الثمرة.. والمواد اللازمة لتكون لها رائحة تجذب الإنسان إليها وتحببه فيها.. فيلتفت الإنسان إلى الرائحة فيرى لونا وشكلا جميلا جذابا للثمرة فيشتهيها ويقطفها. كل هذا يتم بنظام غاية فى الدقة تتبدل فيه اختيارات أنواع الغذاء.. حسب كل مرحلة من مراحل النبات.. إذن هناك اختيار فى النبات.. ولكنه اختيار غريزي.. يخضع للغريزة ولا يخضع للعقل.. اختيار تحكمه المهمة التي خلقه الله سبحانه وتعالى من أجلها.. فالحياة في أي شيء هو أن يكون مناسبا لمهمته.

وهناك فى النبات الذكورة والأنوثة والتناسل.. وهناك نوع من النبات الذي يوجد فى الغابات يتكاثر بأن يقذف البذرة الملقحة بعيداً عن الشجرة.. لتنبت شجيرات جديدة

= الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر واللون والطعم، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد؛ وفي هذا أدل دليل على وحدانيته وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضل عن معرفته؛ فإنه نبه سبحانه بقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد: ٤] على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته؛ وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف. وقيل: وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع؛ فمن تربة عذبة، ومن تربة سبخة مع تجاورهما؛ وهذا أيضا من دلالات كمال قدرته؛ جل وعز تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا.

من النبات نفسه حتى لا ينقرض.. علم واسع جدا يتقدم مع الزمن لنكتشف كل يوم أشياء مذهلة وأسرارا جديدة في حياة النبات[١].

هكذا نرى أن للنبات حياة أوسع كثيرا من مجرد النمو؛ وأنها حياة هائلة فيها أسرار كثيرة وصلنا إلى بعضها وربما نصل إلى البعض الآخر خلال السنوات القادمة.. ولكنها على كل حال أشياء كثيرة، وحياة واسعة. على أن نظرتنا السطحية للنبات لا تتناسب مع مهمة النبات في الحياة.. ولعل أبرزها أن النبات هو الرئة التي تتنفس بها الأرض.. والتي تخلص الأرض من التلوث.. ولذلك كلما زادت المساحات الخضراء في المدن كان الجو صحيحاً، والهواء أقرب إلى النقاء.. وكلما قلت هذه المساحات كان الهواء غير صحي، والجو أقرب إلى التلوث.. ما معنى هذا كله؟ معناه أن هناك مهمة لكل خلق الله.. وأن حياة كل خلق تناسب مهمته.

فإذا جئنا إلى الحيوان.. أقرب الأشياء لتعريف الحياة بالنسبة للإنسان.. وجدنا أننا نصف الحيوان بأنه أبكم.. أي إنه لا يتكلم.. ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً.. فالقرآن الكريم يحدثنا عن أنبياء الله الذين علمهم الله سبحانه وتعالى منطق المخلوقات ولغتها.. فكانت الجبال تسبح مع داود مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وحديث سليمان مع الهدهد الذي يقول فيه الحق سبحانه وتعالى عن سليمان: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ ﴾ [النمل].

إلى آخر الحوار الذي دار بين سليمان عليه السلام والهدهد.. وكيف أن سليمان كلف الهدهد بأن يأخذ كتاباً منه ويلقيه إلى بلقيس وقومها.. كل هذا كان حوارا كلاميا بين سليمان والهدهد.. ذلك الطير الذي نقول عنه إنه لا ينطق.. وحديث النملة الذي ذكر في القرآن الكريم: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٨].

وهكذا نجد أنه في حياة الحشرات والطير والحيوان.. هناك لغات تتحدث بها مع بعضها البعض.. ولكننا لا نسمعها ولا نفهمها.. وأن هناك حياة منظمة بحيث إن النملة قد سمعت وهي تنذر قومها خشية أن يهلكهم سليمان وجنوده.. وأن يعقل الهدهد أن هناك من يسجدون للشمس من دون الله.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣].

كل هذه لمحات من حياة الحشرات والطير والحيوان.. لم نكن نعرف وجودها.. ولا ظننا أن هناك حياة لهم يمكن أن تبلغ هذا الرقي وهذا النظام.. ومع ذلك فهناك مثل هذه الحياة.

نكون بذلك قد وصلنا إلى أن هناك حياة لكل ما خلق الله في هذا الكون، حياة قد نجهلها وحياة قد نعرف منها أشياء، ونجهل أشياء.. وحياة قد نعرفها كلها.. ولكن لكل ما خلق الله في هذا الكون حياة تناسب مهمته على الأرض. وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة، فلا تستغرب قول الله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت].

لأن الجلود هي من خلق الله سبحانه وتعالى.. ولها لغة تسبح بها ولكن لا نفهمها ولا نسمعها.. وكذلك العين والأذن والأنف.. وكل خلية من خلايا الجسم هي مسبحة لله طائعة له.. ولكنها مسخرة لنا.. فاليد مسخرة في أن تطيعني أن أساعد بها مسكيناً، أو رجلاً أعمى.. وأن أبطش بها الضعيف.. واللسان في الحياة الدنيا مسخر لي.. أستطيع أن أقول به الحق، وأن أقول به الكذب.. وأنطق بكلمة الإيمان أو كلمة الكفر.. وهو في هذا يطيعني وفي هذا يطيعني.

وكذلك كل أعضاء الجسد.. فإذا جاءت الآخرة انتهى هذا التسخير وزال.. وأصبح اللسان الذي كان مسخرا لخدمتي في الحياة الدنيا بأمر الله.. خارجا على أن يكون مسخرا لي ويشهد علي.. وكذلك العين.. وكذلك الجلد.. إلى آخره.. وحينئذ تقف كل هذه الأعضاء لتشهد علي بالحق.. بما فعلت في الدنيا من معاص.. وحينئذ يجعلنا الله نفهم لغتها وهي تنطق وتقول الله أنطق كل شيء.. وهو أعلم بلغة الأجناس كلها.. ويستطيع أن يعطي وأن يهب ما يشاء لمن يشاء.

ولقد خص أنبياءه في الدنيا بنفحات من هذا العلم.. فأعطى سليمان ملكاً لن يعطيه لأحد بعده.. وعلمه منطق الطير، وآتاه من كل شيء. وكذلك داود [1]. وكذلك كل من

---

(١) وذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل:].
قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾. أي: فهما؛ قاله قتادة. وقيل: علما بالدين والحكم وغيرهما كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقيل: صنعة الكيمياء. وهو شاذ. وإنما الذي آتاهما الله النبوة والخلافة في الأرض والزبور ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حمله وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلا على كثير من عباد الله المؤمنين. ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].
وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ١٦] قال=

ارتضى الله من عباده.. يعلمه من لدنه علما فيفقه ويفهم ويرى ويسمع مالا نفهمه ولا نراه، ولا نسمعه، ولا نفهمه.. تلك عظمة الله وتلك حكمته.

= الكلبي: كان لداود صلى الله عليه وسلم تسعة عشر ولدا فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه، ولو كان وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء؛ وقال ابن العربي؛ قال: فلو كانت وراثة مال لانقسمت على العدد؛ فخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوة، وزاده من فضله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. قال ابن عطية: داود من بني إسرائيل وكان ملكا وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوة، بمعنى: صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمي ميراثا تجوزا؛ وهذا نحو قوله صلى الله عليه وسلم: «العلماء ورثة الأنبياء» ويحتمل قوله عليه السلام: «إنا معشر الأنبياء لا نورث» أنه يريد أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم، وإن كان فيهم من ورث ماله كـ «زكريا» على أشهر الأقوال فيه؛ وهذا كما تقول: إنا معشر المسلمين إنما شغلتنا العبادة، والمراد أن ذلك فعل الأكثر. ومنه ما حكى سيبويه: إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف.

قلت - أي القرطبي -: قد تقدم هذا المعنى في «مريم» وأن الصحيح القول الأول لقوله عليه السلام: «إنا معشر الأنبياء لا نورث» فهو عام ولا يخرج منه شيء إلا بدليل. قال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه، وكان داود أشد تعبدا من سليمان. قال غيره: ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه؛ فإن الله سبحانه وتعالى سخر له الإنس والجن والطير والوحش، وآتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين، وورث أباه في الملك والنبوة، وقام بعده بشريعته، وكل نبي جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث فإنما كان بشريعة موسى، إلى أن بعث المسيح عليه السلام فنسخها. وبينه وبين الهجرة نحو من ألف وثمانمائة سنة. واليهود تقول ألف وثلاثمائة واثنتان وستون سنة. وقيل: إن بين موته وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم نحوا من ألف وسبعمائة. واليهود تنقص منها ثلاثمائة سنة، وعاش نيفا وخمسين سنة.

وقوله تعالى في [سورة الكهف: ٦٥]: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

قال القرطبي؛ قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ العبد هو الخضر عليه السلام في قول الجمهور، وبمقتضى الأحاديث الثابتة وخالف من لا يعتد بقوله، فقال: ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر وحكى أيضا هذا القول القشيري، قال: وقال قوم هو عبد صالح، والصحيح أنه كان الخضر؛ بذلك ورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقال مجاهد: سمي الخضر؛ لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله، وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء» هذا حديث صحيح غريب. الفروة هنا وجه الأرض؛ قاله الخطابي وغيره.

والخضر نبي عند الجمهور. وقيل: هو عبد صالح غير نبي، والآية تشهد بنبوته؛ لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحي. وأيضا فإن الإنسان لا يتعلم ولا يتبع إلا من فوقه، وليس يجوز أن يكون فوق النبي من ليس نبي، وقيل: كان ملكا أمر الله موسى أن يأخذ عنه مما حمله من علم الباطن. والأول الصحيح؛ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ الرحمة في هذه الآية النبوة، وقيل: النعمة. ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي: علم الغيب، ابن عطية: كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه، لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم.

هذا هو معنى الحياة على الأرض.. كل شيء فيه حياة.. وساعة الخلق كل شيء وجد بكلمة: ﴿ كُن ﴾.. وعلى الهيئة التي أرادها الله سبحانه وتعالى.. وكل قضايا الكون لمسها القرآن ليعطينا من العلم ما سيكشفه لنا الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة.. حين نظن أننا قد وصلنا إلى العلم الذي مكننا من السيطرة على الأرض.. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

أي: بالليل أو بالنهار.. لأننا كما نعرف فإن نصف الكرة مضيء ونصفها مظلم.. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ [الفرقان: ٦٢].

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ خِلْفَةً ﴾.. أي يخلف أحدهما الآخر.. ومعنى الخلفة أن هذا يخلف هذا.. وردية حراسة - مثلاً - تخلفها وردية حراسة.. وردية عمل، تخلفها وردية عمل خلال الأربع والعشرين ساعة.

ولكن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ تحمل معنى أعمق من هذا بكثير.. لأنه في كل عمل لابد من بداية.. وإذا قلنا إن دورية الحراسة هذه تخلف ما قبلها فلابد عند البداية أن تكون هناك وردية قد جاءت.. هي الوردية الأولى.. لم تخلف وردية كانت قبلها.. وإنما جاءت بدون أن تكون خلفة لشيء.

وكذلك عندما بدأ المصنع العمل.. فإن الوردية الأولى التي بدأت العمل لم تخلف وردية كانت قبلها. ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾

ومعنى ذلك أنه لم تكن هناك بداية لليل وحده ثم جاء النهار.. ولم تكن هناك بداية للنهار وحده، ثم جاء الليل.. بل منذ الوجود الأول كانا معاً ليخلف كل منهما الآخر.. وهذا دليل على كروية الأرض.. لأن ساعة خلق الأرض وجد الليل والنهار معا في لحظة الخلق.. فهما خلفة منذ وجدا.. وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

بقيت بعد ذلك نقطتان: النقطة الأولى.. كيف سيعذب الله الجلود والأعين والألسنة، وهي عابدة لله مسبحة له.. وذلك مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

نقول إن هذه الأعضاء كلها ستكون سعيدة، وهي تحرق العاصي لله الكافر به.. كما ستكون الحجارة سعيدة، وهي مشتعلة بالنار لتحرق أولئك الذين عبدوها وكفروا بالله.. كل هذه الأشياء المطيعة لله والتي ستستخدم في إذاقة العذاب للنفس البشرية ستكون سعيدة، لأنها تذيق العذاب لعاص كفر بنعمة الله.

والنقطة الثانية هي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الأنعام: ٩٥].

ولقد حاول العلماء أن يصلوا إلى معنى الحي، ومعنى الميت.. ومادام كل شيء حيا.. فكيف يخلق الله الحي من الميت.. نقول: إن الحياة في خلق الله.. هي أن يؤدي الموجود مهمته.. أي إن كل شيء حي له مهمة في الحياة.. فإذا انتهت هذه المهمة.. خرج من مفهوم الحياة الدنيوية وأصبح ميتاً.. ولذلك فإن الشجرة - مثلاً - إذا أعطت كل ما فيها من ثمار بعد ذلك تخرج من الحياة، لأنها أدت مهمتها.

وكذلك الإنسان عندما تنتهي مهمته في الحياة ويمر بفترة الاختبار التي قدرها الله له.. ويمتحن ويختبر مرة ومرات وتنتهي حياته.. بعد أن انتهت المهمة التي جاء من أجلها للحياة، وهي فترة الاختبار التي مر بها.

وكذلك الحيوان والنبات والجماد.. فالله أعطى الإنسان حياة حس وحركة في الدنيا.. ثم أعطاه حياة أخرى في الآخرة يصعد بها حياته في الدنيا، ويجعل لها قيمة.. فالنعم في الدنيا للمؤمن والكافر.. ولكنها في الآخر للمؤمن وحده.

هنا نتوقف عند قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾.

فمادام كل شيء في الدنيا فيه حياة.. فأين هو الميت الذي ستخرج منه الحياة؟.. والحياة عرفناها أنها في الإنسان والحيوان والنبات والجماد.. فإذا كان كل ما في الكون حيا فأين هو الميت؟ وقبل أن نبدأ الإجابة عن هذا السؤال ونحن نعرف أن من أسماء الله الحسنى المحيي والمميت.. لابد أن نوضح أن أسماء الله سبحانه وتعالى تدل على الثبوت، وعلى الحدوث معا.. فالحق تبارك وتعالى له صفة في ذاته.. وصفة في متعلقات هذه الذات.. فإذا قلنا إن الله هو الرزاق.. فهذه صفة للحق تبارك وتعالى قبل أن يكون هناك مخلوق يرزقه الله.. والله سبحانه وتعالى رزاق قبل أن يخلق من يحتاج إلى الرزق.. ولو أنه سبحانه وتعالى لم يكون رزاقا قبل أن يوجد من يرزقه فكيف يستطيع أن يرزق خلقه لحظة وجودهم.. وإذا لم يكن سبحانه وتعالى هو الخالق قبل أن يبدأ الخلق فبأي صفة يتم هذا الخلق ويُبْدِؤه؟ لابد أن توجد الصفة أولاً قبل أن يوجد الفعل.

فالله سبحانه وتعالى خالق قبل أن يخلق أحدا.. والخلق بدأ أولاً بوجود صفة الخالق في الله تبارك وتعالى حتى قبل أن يوجد مخلوق واحد.. إذن فالخالق صفة لذات الله موجودة قبل أن توجد أفعال هذه الصفة.. والله محيي قبل أن توجد الحياة.. ومميت قبل أن يوجد الموت.. إذن فالصفة موجودة في الذات.. فالله قبل أن يخلق كان خالقاً.. وقبل أن يقدر كان قادرا.. وقبل أن يحيي كان محييا ومميتا.

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾.

قبل أن تكون هناك حياة ووجود.. إذا أخذنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾.

بمعناها السطحي.. فنحن لا نرى في أشياء كثيرة حياة الحس والحركة كما

نفهمها.. وعدد كبير من الحيوانات التي تبيض ولا تلد لا نرى في بيضها حياة.. ومع ذلك يخرج الصغار من هذا البيض.. والمرأة قد تلد طفلاً ميتاً.. والبيض قد لا تخرج منه حياة.

ولكن إذا أردنا أن نتعمق.. فإننا يجب أن نأخذ المعنى على أنه كما أن الحياة خلق.. فالموت أيضاً خلق مصداقا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

إذن.. فالحياة خلق، والموت خلق.. ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد ذكر الموت قبل الحياة فقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾.

فإذا كنا نعيش في هذه الدنيا خلق الحياة؛ فإننا نعيش خلق الموت عندما نغادر هذه الحياة، وكل خلق له قوانينه وله عالمه وله وجوده الذي لا نحس به، ومادامت الحياة والموت والله سبحانه وتعالى وحده هو الخالق فكل شيء يأتي إلى الحياة هو من الله.. وكل شيء يذهب عن هذه الحياة فهو من الله.. وانتقال الشيء من عالم الحياة إلى عالم الموت هو ما يطلق عليه الله سبحانه وتعالى الموت والحياة.

فنحن قبل أن نأتي إلى هذه الدنيا كنا مخلوقين ولكن كنا أمواتاً لم تكن لنا حياة في هذا العالم.. ثم جئنا إلى هذا العالم فأصبحت لنا حياة.. ثم نغادر هذا العالم فنصبح أمواتاً ثم نعود مرة أخرى إلى عالم الحياة الأبدية.. وفي ذلك يقول الحق تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨].

أي إننا كنا أمواتاً قبل أن نأتي إلى هذه الحياة الدنيا، فانتقلنا من عالم الموت إلى عالم الحياة في الدنيا ثم ننتقل مرة أخرى إلى عالم الحياة لنحاسب يوم القيامة، ثم نعود إلى الله إما أن يعذبنا وإما أن ينعمنا، فكأننا ونحن أحياء في عالم الذر كنا أمواتاً في عالم الدنيا.

وعندما انتقلنا من عالم الذر إلى عالم الحياة الدنيا أصبحنا أحياء.. ثم نغادر الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ لنعود مرة أخرى أمواتاً في عالم الدنيا.. ثم نبعث ونخرج أحياء من الأرض نفسها.. ثم هناك الحساب والخلود.

وعندما يأتي الخلود لا يكون هناك موت أي إن عالم الموت ينتهي يوم القيامة بالنسبة للمؤمن والكافر.. ولكن يكون هناك خلود.. خلود في النعيم.. أو خلود في العذاب.. ولكن عالم الموت ينتهي.

إذن.. فعالم الموت موجود حتى يوم القيامة.. ثم ينتهي.. أما عالم الحياة فموجود كخلود بعد يوم القيامة.. بهذا نكون قد عرفنا أن الحياة هي خروج من عالم الله له قوانينه إلى عالم الحياة الدنيا التي له قوانين مختلفة تماما.. والموت هو خروج من

عالم الدنيا إلى عالم آخر من خلق الله.. فكأن الله سبحانه وتعالى هو القادر وحده أن يخرج مخلوقاته من عالم الموت إلى عالم الحياة الدنيا.. ويخرجها من عالم الحياة الدنيا إلى عالم الموت.. ولا قدرة لأحد.. ولذلك تأمل دقة القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: ٩٥].

يخرج الحي من الميت، أي: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يأتي بكل شيء إلى عالم الحياة بدون أن يكتب على نفسه شيئاً، فهو يخرج من يشاء من عالم الموت إلى عالم الحياة؛ ولكن متى جاء الإنسان إلى عالم الحياة ثم مات.. فإن الله لابد أن يخرجه يوم القيامة من عالم الموت إلى عالم الحياة، أي: لابد أن يبعثه.. فقبل المجيء إلى الدنيا لم يكتب الله على نفسه شيئاً.. ولكن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه أن كل من يأتي إلى الدنيا لابد أن يبعث يوم القيامة: وعدا عليه حقا.. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

فكل من جاء من عالم الحياة الدنيا وانتقل إلى عالم الموت لابد مبعوث يوم القيامة.. ولذلك اختلف التعبير فقال الحق: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾

إلى هنا نكون قد تحدثنا عن الحياة بمفهومها العميق.

وتحدثنا عن خلق الحياة وخلق الموت، بقي أن نتحدث عن مشاهد يوم القيامة، وقبل أن نبدأ فإن هناك علامات للساعة لابد أن نمر عليها مرورا سريعا.

معنى الساعة.. وأحداث القيامة

قبل أن نبدأ الحديث عن أحداث يوم القيامة، فإنه لابد من حديث عن معنى الساعة.. ذلك أن بعض الناس يشغلون أنفسهم بأشياء كثيرة عن موعد قيام الساعة، ومتى تقع.. إلى آخر ما نسمعه من أسئلة بين عدد من الناس.. ومن تنبؤات بين عدد من العلماء.. بعضهم يقول: إن الأرض ستبتعد عن الشمس فيتجمد كل شيء.. والبعض الآخر يقول: إن الأرض ستقترب من الشمس، فيحترق فيها كل شيء.. والبعض الثالث يقول: إن الأوكسجين سيقل من الأرض لتصبح غير صالحة للحياة.

كل هذه وغيرها تنبؤات تقوم على الظن، وليس على اليقين.. فحتى الآن لا أحد يعرف يقينا ماذا سيحدث.. ولا متى سيحدث.. نقول لهؤلاء جميعاً.. لقد شغلتم أنفسكم بعلم لا ينفع وجهل لا يضر.. ذلك أنه مهما كان عمر الأرض ملايين السنين فأنا لا يعنيني منها إلا فترة بسيطة جدا هي فترة عمري.. فقبل أن أولد لا علاقة لي بالحياة على الأرض.. وبعد أن أموت لا علاقة لي بالحياة على الأرض أيضا.

إذن.. فموعد القيامة بالنسبة لي هو موعد انتهاء حياتي على الأرض.. فمن مات قامت قيامته[1]. لماذا؟ لأنه يرى كل شيء.. يرى ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.. ويرى أشياء كثيرة لم يكن يراها في الدنيا.. وبالنسبة له تنتهي فترة الاختبار التي هي المدخل إلى يوم القيامة.. لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

لماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾.

لأن الذي يموت كافرا.. يعلم يقيناً أن لا أمل له إلا العذاب في الآخرة؛ ولأنه رأى فهو يعرف أن لا أمل له في دخول الجنة.. وأن لا أمل له في النجاة من النار.. وهذا اليأس يصبح يأسا يقينيا.. فالإنسان يعرف مصيره ساعة يحتضر.. تلك اللحظات التي هي بين الموت والحياة.. يشاهد فيها الإنسان كل ما أخفي عنه.. تلك الساعة التي تغادر فيها الروح الجسد.. أو سكرة الموت كما يسميها الله سبحانه وتعالى.. تلك اللحظات التي

(١) ورد في الأثر: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. قال العجلوني في كشف الخفاء: هو من قول علي بن أبي طالب. لكن عزاه الشعراني في الطبقات لسهل التستري، ولفظه في ترجمته: ومن كلامه الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وإذا انتبهوا ندموا، وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم. انتهى.

تخمد فيها بشرية الإنسان.. وتنتهي فيها حياة الاستعلاء وحياة الكبر، وكل مظاهر الحياة الدنيوية بكل ما فيها ومن فيها.

وإذا أردت أن تشهد ذلك فانظر إلى إنسان قد تجبر وعلا وأعطاه الله أسباب الملك في الدنيا.. تجده ساعة الاحتضار ضعيفا ذليلا عاجزا.. كل مظاهر الاستعلاء ذهبت.. ينظر إليك في مسكنة غريبة، ويحاول أن يستنجد بكل من حوله.. ولكن الكل عاجزون.. في هذه اللحظة يأخذ الإنسان مقدمات الغيب.. ويرى ما أخبره الله سبحانه وتعالى عنه، ولم يكن يصدقه.. ذلك لأن بشريته الآن قد خمدت.. وما دامت البشرية خمدت، تهب نفحات الغيب.. وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩].

أي: ما كنت تظن أنه لن يقع.. أو تحاول ألا تتذكره، وألا تعترف به، وكنت تظن أن هذه اللحظة لن تأتي.. فإذا أتت تتوهم بأن شيئاً لن يحدث فيها.. في هذه اللحظات بالذات لا تنفع التوبة.. ولا يجدي الاستغفار. فمع سكرة الموت ينقطع عمل الإنسان الدنيوي.. وتأتي الساعة التي ينتقل فيها كل منا إلى عالم البرزخ لينتظر الحساب.. وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝ ﴾ [الواقعة].

أي: أن الإنسان وهو بحتضر يكون أقرب إلى ملكوت الله من أولئك الذين يقفون حوله ساعة الاحتضار.. ومع أن أهل المحتضر يحيطون به إحاطة لصيقة عن قرب في هذه الساعة العصيبة.. فإن ملكوت الله يكون أقرب منهم إليه.. وتحيط بالإنسان في هذه الحالة إما ملائكة الرحمة إذا كان صالحاً.. أو زبانية جهنم - والعياذ بالله - إذا كان فاسقا.

على أننا لابد أن نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ والنفس كما قلنا هي التقاء الروح بالجسد.. فكيف يطلب الملائكة من الظالم المحتضر أن يخرج نفسه.

لكي نفهم هذه الآية لابد أن نضع في أذهاننا أن هذا المحتضر كان كافرا وكذوبا بالبعث، وحينئذ إذا جاءت ساعة الاحتضار يكون حوله ملائكة العذاب أو زبانية جهنم يقولون له: ها أنت ذا ترى الآن ما كنت تكذب به، وترى العذاب الذي ينتظرك؛ فإن كان لك قوة وقدرة كما كنت تدعي في الحياة الدنيا فأخرج نفسك مما ينتظرك، اهرب من العذاب الشديد الذي سوف تلاقيه، أرنا أين ستذهب، لقد كانت لك قدرة في الحياة الدنيا، قدرة من الله ولكنك بدلا من أن تستخدمها في شكر الله انطلقت تقول على الله

غير الحق وتستكبر في الأرض، وتبارز الله بالمعاصي؛ ولكنك الآن خامد خافت.. لا تملك شيئا لنفسك، ولا صوتا تستجير به بأنصارك.. فأنت ترى العذاب وهو واقع بك، ولن تفلت منه.

المؤمن يرى الملائكة أيضا، ولكنه يرى ملائكة الرحمة الذين يبشرونه بالجنة، ويستقبلونه بالسلام، ويكون فرحا مستبشرا.. فالإنسان حين يحتضر تكون قيامته قد قامت، ولا علاقة له بالأيام والأحداث القادمة إلى الدنيا.. فهو قد انتهى دوره عند هذه اللحظة، وانتهت مهمته في الحياة، وانتقل إلى عالم القيامة: عالم الحساب لينتظر يوم قيام الساعة.

ولذلك فإننا نقول لكل من يجهدون أنفسهم في أشياء هي من علم الغيب، ولم يصلوا إليها يقينا.. نقول لهم: لا تجهدوا أنفسكم في أشياء هي من علم الغيب، ولم تصلوا إليها يقيناً.. فمادام الله قد أخفى وجعل علم الساعة عنده. فلا أحد يعلمها سواه.. وحتى لو علمتها فماذا ستستفيد منها.. لنفرض أنني علمت أن الساعة ستقوم بعد ألف سنة.. ماذا سيفيدني ذلك؟ هل سأعيش ألف عام أتأثر بأحداث الأرض والحياة، وتتأثر بي أم ستنتهي بعد سنوات، طالت أم قصرت.. وحتى لو أنني قلت للناس إن القيامة ستقوم بعد ألف سنة فماذا يستفيدون؟ معظمهم سيقابل هذا الكلام بالسخرية، وعدم التقدير وآخرون سيقولون: مالنا نحن وما سيحدث بعد هذه الفترة الطويلة؟!

إذن.. لو عرفنا موعد الساعة ما كان ذلك ليفيدنا على المدى الطويل.. فإذا نظرنا إليها على المدى القصير وتصديقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات قامت قيامته»[1] إذا نظرنا إليها من هذه الزاوية وهي أن القيامة الصغرى عندما يموت الإنسان، والقيامة الكبرى في آخر الزمان، نجد أيضا أن الأجل قد أخفي عنا.. لماذا؟ لنتوقع الموت في كل لحظة ودقيقة فيسارع كل منا إلى الخير قدر إمكانه، ويبتعد عن الشر قدر استطاعته ولو أن الأجل محدود معلوم لأثر ذلك على استمرارية الخير في الكون؛ ولزاد من استمرارية الشر.

فإذا علمت أن أجلي مثلاً خمس وستون سنة، فأنني أظل أتبع أهوائي وشهواتي إلى سن الستين ثم أتوب بعد ذلك.. وبذلك نكون قد أعطينا استمرارية للشر في الكون.. وبخاصة أن ذلك سينطبق على معظم الناس.. وفي الوقت نفسه فإن كلا منا إذا عرف أجله أجّل الخير إلى السنوات الأخيرة من عمره.. فنكون بذلك قد قطعنا استمرار الخير.. ولكن حتى يستمر الخير في الكون، ويسارع كل منا إليه.. فإن الأجل المخفي هو السبيل.

على أنه حتى لو قلت لإنسان: إن عمرك سينتهي بعد عام أو عامين، أو شهر أو شهرين، فإنه لا يصدقك.. وسيظل يراوده الأمل في أنه سيعيش أكثر.. ولا يحس

---

(١) سبق تخريجه.

الإنسان بيقين الموت إلا ساعة الاحتضار.. ففي هذه الساعة يعرف الإنسان يقيناً أنه سيموت.. ولكن حتى قبلها بساعات، ومهما اشتد المرض عليه فإن الأمل يظل يراوده في أنه سيشفى ويعيش.

إذن.. فالبحث عن موعد الساعة سواء كان نهاية للأجل أو نهاية للكون.. لابد أن نتركه لأننا لن نصل فيه إلى شيء.. وعندما ينتقل الإنسان من حياة الدنيا إلى حياة البرزخ.. فإنه ينتقل من حياة لها قوانينها إلى حياة أخرى لها قوانينها المختلفة..

والله سبحانه وتعالى أراد أن يقرب ذلك إلى أذهاننا فأعطانا قانونين مختلفين في حياتنا.. هما قانون اليقظة. وقانون النوم.. فالإنسان وهو مستيقظ يحس بالأحداث.. يؤثر فيها ويتأثر بها.. ويحس بالزمن.. ويرى بعينه ويمشي بقدميه.. إلى آخر ما نعرفه عن حياة اليقظة.. فإذا نام رأى نفسه يمشي وهو نائم.. قدماه لم تتحركا من فوق السرير.. ويرى وعيناه مغلقتان.. ويتحدث مع من انتقلوا إلى الحياة الآخرة.. ويرى أشياء عجيبة تحدث له وأماكن غريبة يذهب إليها.. كيف يتم ذلك وهو ملقى على السرير بلا حراك.. عيناه مغمضتان لا يدري بما يحدث حوله.. غائب عن الزمن..

نقول لأن هناك قانوناً للنوم يختلف تماماً عن قانون اليقظة. فهناك بصر يرى بخلاف العينين.. وحركة تتم بدون تحرك الجسد.. وأشياء تحدث لا تخضع لقوانين الجسد البشري ولا يعرف العلم عنها شيئاً.. فإذا حدثنا عن أن هناك قوانين بعد الموت مختلفة تماما عن قوانين الحياة في الدنيا.. فلنأخذ من الاختلاف بين قانوني اليقظة والنوم ما يقرب هذه الصورة لأذهاننا.. وحينئذ تستطيع عقولنا أن تفهم.

على أننا لابد أن نتوقف لنعرف أن للساعة علامات أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تحققت العلامات الصغرى التي أنبأنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها.. أما العلامات الكبرى فهي لم تتحقق بعد.. بعض الناس هنا تتساءل: إذا كان علم موعد الساعة لا يفيدنا، فلماذا تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامات اقتراب الساعة:

نقول: إن هذه الأحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعطينا موعد الساعة. فإنها لا تقول لنا: إنه إذا تحقق كذا وكذا وكذا فانتظر الساعة بعد مائة عام أو ألف عام.. ولكنها تذكرة لأولئك الذين سيعم الفساد بينهم كلما اقترب موعد الساعة.. تذكرة لهم تطالبهم بأن ينتبهوا جيدا إلى أن ما يحدث في الكون هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وامتداد لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. حتى إذا قرأناها ورأيناها قد تحققت نقول: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ونتذكر المنهج الذي بعث به الله رسوله صلى الله عليه وسلم.. فنسارع باتباع المنهج، وتكون علامات الساعة هذه تذكرة لنا بصدق الرسالة التي بعث بها الرسول الكريم.. وتكون من المعجزات المستمرة لرسول

الله عليه الصلاة والسلام.. كلما تحققت نبوءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.. كانت بمثابة معجزة جديدة لنا تثبتنا على الإيمان. كما ثبتت المعجزات التي حدثت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابة رسول الله على الإيمان.. فكأن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم متجددة وليست متجمدة.. بأشياء رواها تحدث الآن.. وأشياء رواها ستحدث في المستقبل.. كلما حدث شيء قلنا: هذا حق.. ورسول الله حق.. وكانت لفتة إيمانية تعيد الناس إلى المنهج الذي نسوه وتركوه بمرور الزمن.

إذن.. فالعلامات الصغرى للقيامة فيها تثبيت للإيمان.. وفيها إعجاز يفيق الناس الذين غفلوا عن منهج الله.. ولكن ليس فيها ما يمكن منه أن نحدد موعد يوم القيامة.. وربما يكون الموعد قريباً.. ولكن القريب عند الله بعيد عندنا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝ ﴾ [المعارج].

إذن.. فالقرب والبعد عند الله مختلف عن مفهومنا.. والساعة قريبة نعم.. بعد أن تحققت علاماتها الصغرى.. ولكن كم عدد سنوات هذا القريب.. لا أحد يدري!

لكن ما هي علامات القيامة الصغرى التي تحققت في ملخصها، أو إذا أردنا أن نضعها في إطار عام هي اختلال الموازين وانقلاب المبادئ؟ فبهذا الكون موازين أخلاقية كان من المفروض أن تحكم الحياة بين الناس، وكانت هي الطريق السوي الذي لابد أن يمضي بها هذا الكون ليصلح هذه الموازيين والقيم الأخلاقية التي كانت سائدة تختل وتهتز وتنقلب فيصبح ما هو مستنكر واقعا، وما هو واقع وحقيقة مستنكرا.

وترى الشح المطاع بأن الإنسان لا يعطي ما عنده، بل يبخل به.. وليس الشح هنا شح المال.. ولكنه شح في كل شيء.. فالصانع لا يعطي صنعته كل علمه وإتقانه.. والأستاذ لا يعطي تلاميذه كل ما يعلم، بل يعطيهم على قدر الأجر.. فجزء في المدرسة، وجزء في الدرس الخصوصي، وجزء في الدرس الخاص جدا، يبخل الناس بمالهم فلا ينفقوه في سبيل الله، ولا يعطونه للفقير والمحتاج.. ويبخل العامل بعمله فتجده يستطيع أن يعمل ولكنه لا يعمل.. ويبخل الموظف بجهده.. فتجد أنه يستطيع أن ينتج، ولكنه لا ينتج.. وكل عمل يبخل العاملون فيه بجهدهم.

فهناك بخل من كل ذي قدرة بقدرته.. وبخل من كل ذي علم بعلمه.. وبخل من كل ذي جاه بجاهه.. أي إن الإنسان يكون في مجتمعه مسموع الكلمة مطاع الأمر.. ولكنه يرفض أن يستخدم ما وهبه الله في مساعدة المحتاجين. أو إنصاف المظلومين، أو قضاء الحاجات.. وهو يستطيع أن يفعل ذلك بكلمة واحدة.. ولكنه لا يفعل.

يجد الإنسان أنه يستطيع أن يرفع ظلماً يقع فلا يتحرك ليمحو هذا الظلم.. ويجد أنه يستطيع أن يقر الحق بشهادة يقولها، ولكنه لا يذهب لأداء هذه الشهادة.. كل إنسان

يبخل بما عنده.. لتنحدر الإنسانية بعد ذلك إلى أسفل السافلين؛ لأن كل جيل سيأخذ من علم الجيل الذي قبله القشور.. وبهذا تضمحل الحضارات جيلا بعد جيل.. هذا هو معنى الشح المطاع.. ولعلنا نشهده الآن في الدنيا كلها.. ولعلنا نرى أن كل جيل هو أقل عطاء من الجيل الذي قبله.. ويقل العطاء كلما مضت الأيام.. وهكذا نجد في كل أوجه الحياة شحا مطاعا ينبئنا عن بداية انحدار الإنسانية إلى الهاوية.. بينما المجتمعات التي سبقت كانت قائمة على العطاء بلا حدود، حتى إن الأنصار عرضوا على المهاجرين أن يتنازلوا لهم عن نصف أموالهم وزوجاتهم بلا مقابل.

العلامة الثانية لاختلال الميزان هي ضياع الحق.. أو كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إعجاب كل ذي رأي برأيه وإعجاب الناس بآرائهم هو بداية الخروج من الحق إلى هوى النفس.. وكل واحد يقول: هذا رأيي ولابد أن يتبع.. ويحاول بشتى الطرق أن يزين هذا الرأي، ولو بالباطل.. وأن يجمع الأدلة عليه، ولو كذباً.. فإذا رأى الحق فإنه ينسى أن الرجوع إلى الحق فضيلة.. يرفض أن يهزم، وأن يؤخذ بغير رأيه.. فكأن الناس قد وضعوا أنفسهم فوق الحق.. بينما الحق هو الذي كان يجب أن يسود الجميع، وأن يخضع له الناس.

ولكن الدنيا كلها تتفنن في الخداع، ويصبح كل صاحب رأي يحاول أن يحقق غايته بأي طريق.. بالضلال والإخلال.. وهكذا يختل ميزان الدنيا لأنه مقام على الحق.. ويصبح الحق ضائعاً لا صاحب له.. لأن كل صاحب رأي معتز برأيه، بصرف النظر عن الحق.. وهذا ما نجده الآن في الدنيا.. فالناس تحاول أن تفعل وتخلد أشياء أو ليقال إنها فعلت من دون أن يكلف إنسان جهده في أن يسأل نفسه أين الحق وأين الباطل من كل ما يجري؟

نأتي بعد ذلك إلى علامة أخرى من علامات اختلال الميزان وهي إعطاء الشيء لغير أهله، والدنيا كلها قائمة والحياة كلها تقدمت بأنه يعطي الشيء لأهله.. فتعطي قضايا العلم للعلماء، وتعطي قضايا الاختراعات للباحثين والمخترعين، ويعطى القضاء مثلاً لمن هم قد درسوا قوانين الله وشرعه؛ ولكن العقل البشري عند اقتراب الساعة لا يعطي الشيء لأهله.

فإذا بدأنا بالقضية الكبرى، وهي قضية خلق الحياة والكون. فالله سبحانه وتعالى هو الذي أخبرنا بأنه خلق.. ولم يخبرنا أحد، ولا يجرؤ أحد أن يدعي أنه خلق الكون.. ومع ذلك يأتي بعض الناس ليقولوا: إن الكون خلق بالصدفة.. وإن هناك تفاعلات كذا وكذا هي التي فعلت كذا.. ونجد نظرية التطور تقول: إن الإنسان أصله قرد.. مع أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، وأخبرنا كيف خلقه.

ولكن في هذه القضية الكونية الكبرى ينسب لغير أهله.. ويفترى الناس على الله ويغرهم ما كشف الله لهم من قوانين وأسرار في الكون، فيظنون أنهم قد أوجدوا هذه القوانين، وأنهم قد صنعوها بقدرتهم، وإنها تتصرف وفقا لإرادتهم، فتخل الموازين،

ويعبد الإنسان نفسه.. فتأتي إرادة الله سبحانه وتعالى لتزيل هذا الزيف كله، ويُدعى الناس للحساب أمام الله فيرون أنهم كانوا عجزة لا يقدرون على شيء، وكانوا خاضعين لا يملكون شيئاً، ولكن الله هو الذي أعطاهم من قدرته، ومنحهم من ملكه، فإذا بهم يقابلون ذلك بالكفر بدلا من الشكر.

هذا هو المعنى الواسع لأن يعطى الشيء لغير أهله.. أى إن يحسب الإنسان إنه الأصيل فى الكون، وأن كل شيء خاضع له وينسى خالقه.. وكلما مر الزمن شهدنا ذلك يبرز على الساحة فى العالم.. فنجد من يقول: انتهى عصر الدين وبدأ عصر العلم كأنما الدين والعلم متعاندان.. بينما الدين هو دين الله، والعلم هو علم الله.. وكلاهما مثبت للإيمان ونرى العالم كلما تقدمنا فى الزمن يحسب أنه قد استطاع أن يسيطر على الأرض بالعلم، ويخضعها لإرادته، ويتحكم فيها.. بينما العلم لم يخلق شيئاً.. وإنما استخدام المادة التي خلقها الله والعقل المسخر له من الله.. في استخدام ما شاء الله من أسرار هذا الكون.

فالذي اخترع الصاروخ مثلاً جاء بالمواد التي خلقها الله، وأوجدها فى الأرض ليصنع منها جسد الصاروخ ووقوده.. فهو لم يخلق المادة التي صنع منها جسم الصاروخ.. وإنما جاء بها من المناجم التي أوجدها الله فى الأرض، قد يكون قد طورها وقواها بمواد أخرى ولكنها كلها جاءت من خلق الله مما أودع الله سبحانه وتعالى في كونه من نعم وكنوز، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

❁ ❁ ❁

الموت والقبر.. أول مراحل الآخرة

عندما نبدأ الحديث عن مشاهد يوم القيامة، فلابد أن نتعرض إلى ثلاث نقط: أولاها معنى الموت.. وثانيتها نفخة الصور.. وثالثتها طريقة البعث.. فمع البعث تبدأ أحداث يوم القيامة.. ولكن يسبق هذا الموت.. والحديث عن الموت، أو انتهاء الحياة حديث يمكن أن يلخص في سطور قليلة.. فالموت كما قلنا خلق من خلق الله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ولعلنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد قدم في هذه الآية الموت على الحياة.. فقال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾.

ولنا أن نتساءل: لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الموت على الحياة؟ فنجد أنه لسببين:

السبب الأول أنه يسبق الحياة.. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

أي: أن الموت يكون قبل الحياة.. ومن هنا فهو سابق للحياة.. والثاني أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الموت حتى إذا تذكرناه سارعنا إلى الخير والإيمان والعمل الصالح.. ولكنه ليس في حاجة لأن يلفتنا إلى الحياة.. فدوافع الحياة متمكنة متأصلة في النفس البشرية.. من منا إذا جاء أول الشهر ينسى أن يقبض مرتبه.. من منا إذا أحس بالجوع ينسى أن يأكل لعدة أيام.. من منا لا يحاول أن يحصل على أكبر حظ من الدنيا.. دوافع الحياة كثيرة وموضوعة في النفس البشرية لتستطيع هذه النفس أن تؤدي مهمتها في الكون، وهي عمارة الأرض، وبناء الحضارة.. ولكننا ونحن نتذكر الحياة في ثانية، ننسى دائماً الموت.. وقد تمر سنوات من دون أن نتذكر أننا سنموت ونلاقي الله.. بل إننا إذا ذكرنا إنساناً بذلك.. فإننا نحاول أن نبعد هذه الصورة.. صورة نهاية الحياة، ونستعيذ منها.

إذن.. فنحن محتاجون دائماً لأن يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى الحقيقة.. فيأتي ذكر الموت أولاً ليلفتنا الله سبحانه وتعالى إليه حتى لا نحسب أننا أخذنا الحياة الدنيا اغتصابا واقتدارا ولن نخرج منها.

والموت هو انتهاء الإرادة البشرية.. فمادمت حيا فإنك تستطيع أن تفعل كذا ولا تفعل كذا.. ويكون لك اختيار وبدائل.. ولكن متى جاء الموت انتهى هذا الاختيار

تماماً، ولم يعد لك اختيار فيما سيفعل بك، أو سيقع عليك من أحداث.. من لحظة الموت إلى يوم القيامة، فالإرادة البشرية انتهت مهمتها في اختيارات الدنيا.. وما دامت قد انتهت مهمتها فهي الأخرى لم يعد لها وجود.

وهكذا تنتهي إرادتك البشرية.. وتنتقل إلى حياة البرزخ التي لا تملك فيها إرادة.. ثم يوم القيامة الذي لا تملك فيه أيضاً إرادة.. على أننا لابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

هل للموت مذاق وطعم يتذوقه الإنسان؟.. هل له طعم مثل الطعام مثلاً؟

نقول إن الله سبحانه وتعالى يستخدم لفظ الذوق، لأنه الإحساس الصارخ في الأشياء الذي يحس بها كيانك كله.. فأنت مثلاً ترى بعينيك، وتسمع بأذنيك، وتلمس بيديك، وتشم بأنفك.. ولكن الذوق باللسان هو الشيء الذي يعود بالنفع على هيكل الجسم كله.. فيعطيك إحساساً باللذة وجمال الطعم.. ويعطي جسدك الطاقة التي يعيش بها.. ويعطي الدم الغذاء الذي يحتاج إليه.. ويعطي المعدة ما تمتصه للجسم ويعطيك القدرة على الحركة.

فأنت إذا تناولت الطعام فإنك تعطي لجسدك كل شيء يحتاج إليه.. ولا يصل تأثير ذلك إلى جزء معين من الجسد، بل يصل إلى أعضاء الجسد كله.. فإذا كان الإنسان بدون طعام فإنه لا يقوى على الحركة، ولا على التفكير، ولا على الكلام.. ولا على الرؤية السليمة بالعينين.

وهكذا ترى أن أثر الذوق يصل إلى الجسد كله.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠].

أي: أن الكفار حين يعذبون في النار يصل الحريق إلى كل خلية من أجسادهم، كما يصل الطعام إلى كل خلية من خلايا الجسد في الحياة.. والله سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

أي: أن الجوع تمكن منهم حتى ذاقته كل خلية في الجسم.. أو أن الخوف ملكهم حتى مس كل خلية من أجسادهم.. فارتعدت أيديهم ولم تكن أقدامهم قادرة على حملهم.. ولم تقو ألسنتهم على النطق ولا عقولهم على التفكير من شدة الخوف.

إذن.. فمعنى الذوق هو أن يحيط الشيء إحاطة كاملة بالإنسان حتى تتأثر به كل خلية في جسده.. وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾.

أراد الله أن يعطينا بها معنى الإحاطة.. فكأن كل خلية من الجسد سيمسها الموت.. شمولية الأثر يريد الله سبحانه وتعالى منا أن نلتفت إليها.. فلا يؤثر الموت على الحواس فقط.. أو على العقل والقلب فقط.. ولكنه يشمل كل خلية في جسد

الإنسان له تأثير عليها، وهي تحس به، وتتأثر به.. وهذا هو المعنى الذي قصده الحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

وبعد الموت تأتي حياة البرزخ بقوانينها التي تحدثنا عنها في الجزء التاسع من معجزة القرآن الكريم.. فهي حياة لا زمن فيها.. وضربنا مثلاً لذلك بأصحاب الكهف الذين أماتهم الله ثلاثمائة عام.. وعندما بعثوا لم يحسوا بالزمن: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩].

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝﴾ [المؤمنون].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ۝﴾ [طه].

وهكذا نرى أنه لا زمن في حياة البرزخ، وأن الذين يعيشون في البرزخ لا يحسون بالزمن.. وهذا ما شرحناه بالتفصيل في كتاب الحياة البرزخية [1].

❁ ❁ ❁

(١) وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة.

النفخ فى الصور.. والبعث والنشور

ثم ينفخ في الصور، مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]

في هذه الآية ملاحظتان: الملاحظة الأولى أن الله سبحانه وتعالى استثنى من الصاعقة التي ستحدث فى الآخرة. فكأن هناك من لن تصيبهم الصاعقة، وقدم النظر في هذه الآية على السمع، وهذه هي المرة الوحيدة فى القرآن الكريم التي قدم فيها النظر على السمع.. فالله سبحانه وتعالى في كل آيات القرآن كان يأتي بالسمع قبل البصر: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

ولكن في هذه الآية وحدها قدم النظر على السمع.. نقول: إنه بالنسبة للصاعقة التي ستصيب الإنسان يوم القيامة، قال الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه أن المخلوقات كلها تصيبها صعقة واحدة.

ولذلك فكل من أصيبوا بالصاعقة من قبل لن يصابوا بالصاعقة مرة أخرى؛ لأن المخلوقات لا تجمع بين صعقتين.. موسى عليه السلام صعق فى الدنيا.. عندما طلب أن يرى الله جهرا.. مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ولذلك فإن موسى لن يصاب بالصاعقة مرة ثانية.. وكذلك الجبل الذي تجلى له الله سبحانه وتعالى فأصيب بالصاعقة فكان دكا، وكذلك أولئك النفر من قوم موسى الذين صعقوا قبل ذلك.. وقال عنهم القرآن الكريم ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [البقرة].

وهناك من أخذتهم الصاعقة من قوم عاد وثمود.. فهؤلاء أصابتهم الصاعقة.. ولذلك فإن كل من صعقوا لن تصيبهم الصاعقة مرة أخرى.. وهذا معنى قول الحق: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر].

على أن ذلك لا يعني أنه ليس لله سبحانه وتعالى طلاقة القدرة.. فالله له طلاقة قدرة يفعل ما يشاء، متى شاء.. وطلاقة القدرة فى الكون هي التي صنعت المعجزات للأنبياء.. فمعجزات الرسل خرقت نواميس الكون.. وأبطلت الأسباب.. ذلك أن أسباب الدنيا ليست قيدا على خالقها، وهو الله سبحانه وتعالى.. ولذلك فإن الله سبحانه

وتعالى الذى جعل للنار خاصية الإحراق.. جعلها بردا وسلاما على إبراهيم[١].. وجعل البحر ينشق لموسى[٢].. وطلاقة القدرة موجودة فى الكون منذ خلق إلى يوم القيامة.. فهي التي تعين المظلوم على الظالم.. وتنصر الضعيف على القوي.

لذلك عندما ترى إنساناً يصيح ربنا كبير.. أو ربنا موجود.. فاعلم أنه رأى طلاقة قدرة الله.. لأنه لو رأى الأسباب تعطي، ما تعجب وما صاح.. ولكن لأن الأسباب تعطلت بعدل المسبب.. فإنه صاح ربنا كبير.. ربنا موجود.

إذن فقول الحق فيمن ستصيبهم الصاعقة إلا من شاء الله.. يعني من أصابته الصاعقة من قبل.. ومن يشاء الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته ألا تصيبه الصاعقة.

أما استخدام ينظرون في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

لأنها الحالة الوحيدة التي سنرى فيها قبل أن نسمع عند البعث من القبور.. يخرج الناس فيرون أولاً الأرض وهي تتشقق والناس تخرج منها.. ولكن العكس يحدث في كل الأحداث الأخرى.. فعندما يخرج الطفل من بطن أمه فإنه يظل عدة أيام لا يرى.. حتى إنك إذا قربت إصبعك من عينه لا يهتز جفناه.. ولكنك إذا أحدثت صوتاً عالياً بجانب أذنه في لحظة الولادة الأولى فإنه ينزعج.. ولذلك كانت الأذن أولاً في آيات القرآن.. لكننا فى الآخرة نخرج من القبر فنرى أولا.

ولكن بعض الناس يتساءل.. كيف سيتم البعث؟.. وقد اختلطت عناصرنا بعناصر الأرض.. وكونت غذاء جديدا اختلط بمخلوقات أخرى.. وهم يضربون لذلك مثلين:

المثل الأول: لنفرض أن إنسانا مات ودفن فى الأرض وعلى قبره زرعت شجرة تفاح، ونمت تتغذى من عناصر جسد الإنسان.. وأنبتت ثمرة فيها بعض هذه العناصر.. وأكلها إنسان آخر فكونت جسده واختلطت العناصر بعضها بالبعض.. كيف ستفصل هذه العناصر يوم القيامة؟ وهل بعد أن اختلطت عناصر جسد بعناصر جسد آخر يمكن أن تنفصل عنه؟

والمثل الثاني: إذا ابتلع حوت إنسانا وأصبح هذا الإنسان طعاما للحوت وأخذ كل عناصره ليهضمها ويجعلها مادة غذائية له.. كيف يمكن أن تفصل هذه العناصر؟ نقول لهؤلاء الناس.. لقد جهلتم معنى الخلق.. فالخلق ليس عناصر ولكنه إيجاد بشكل مميز.. ذلك أننا لو طبقنا هذا الكلام لقلنا هب أن إنسانا مرض وأدى هذا المرض إلى أن يفقد من جسده عشرين كيلو جراما مثلا.. فهل يكون هو الشخص نفسه أم لا؟ نعم يكون

---

(١) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝﴾ [الأنبياء].

(٢) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۝ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ۝﴾

هو الشخص نفسه.. فإذا استرد قوته وزاد وزنه عشرين كيلو جراما هل يكون هو الشخص نفسه أم لا؟ أم أننا نجد أنه قد تحول إلى إنسان آخر بمجرد فقده العشرين كيلو من عناصر تكوينه أو استرداده لها.. كل إنسان مخلوق مميز.. لا يشبه مخلوق مخلوقا آخر حتى قيام الساعة.. فكل منا مكون من نسبة معينة من عناصر.. وعندما يريد الله أن يعيده.. يأمر هذه النسبة فتتحد من جديد لتعيد تكوين الشخص نفسه.. فالعناصر التي تكون الإنسان لها نسب لا نهائية في التكوين.. ونحن نرى مع إننا مخلوقون من عناصر الأرض.. إلا أن كلا منا يميز بشكل ما يعطيه ذاته.. تماما كما تخلط عددا من العناصر لتكوين شيء ما.. كلما أضفت قطرة أعطتك شيئا مختلفا.. فأنت حين تخلط ألوان الطلاء.. لو أضفت قطرة من اللون الأسود أعطتك لونا.. وقطرتين أعطتك لونا آخر وثلاث قطرات تعطيك لونا ثالثا.. وقطرة من اللون الأحمر تعطيك لونا رابعا.. فإذا أضفت قطرة من اللون الأصفر حصلت على لون مختلف، وكلما كانت الزيادة بدقة حصلت على عدد لا نهائي من الألوان. وهكذا شخصية الإنسان.. تكوين دقيق من الله تبارك وتعالى.. لا يتكرر بين شخص وشخص.. وإذا جاءت الساعة وصار أمر الله عادت التكوينات نفسها إلى أصلها ليخرج الأشخاص نفسهم.

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم هذه الحقيقة.. فالله سبحانه وتعالى قد خلقنا من عدم.. أي لم نكن موجودين وقد أوجدنا.. فأسهل عليه أن يعيدنا.. أي إنها ستكون عملية خلق من موجود وليس من عدم.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس].

أي إن الله الذي علم خلقكم أول مرة.. وبهذا العلم خلق.. يستطيع أن يردكم مرة أخرى إلى الحياة وهو أهون عليه.. ويرد الله سبحانه وتعالى على أولئك الذين يتحدثون عن اختلاط عناصر الإنسان بعناصر الأرض فيقول جل جلاله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الإسراء].

وهكذا رد القرآن الكريم على مسألة اختلاط العناصر.. وقال لهم فلتختلط عناصركم بالحجارة أو بالحديد.. أو بأي خلق آخر سواء كان نباتاً أو حيواناً أو إنساناً.. فإن الله الذي خلقكم أول مرة وأوجدكم من عدم قادر على أن يعيدكم.. وهكذا لا يجب أن يكون عند أي إنسان شك في أنه سيبعث هو بنفسه وبذاته بقدرة الله يوم القيامة.

وفي يوم القيامة سيخرج الناس من هذه الأرض التي نعيش عليها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

❁ ❁ ❁

الحشر

مشاهد يوم القيامة التي ذكرها القرآن الكريم ترينا أننا سنقوم دفعة واحدة من الأرض.. سنبعث مرة واحدة.. سنقوم جميعاً في لحظة واحدة.. ولذلك قد سماها الله سبحانه وتعالى الحشر.. ما معنى الحشر؟ معناه محاولة إدخال أشياء متعددة في مكان ضيق لا يتسع لها.. بهذا يريد الله أن يقرب لنا صورة ما سيحدث ساعة البعث ليسميه الحشر؛ لأن الناس دفنوا في الأرض من عهد آدم حتى يوم القيامة سيخرجون منها دفعة واحدة.. وبما أننا سنبعث من الأرض التي دفنا فيها نفسها.. وسنبعث في لحظة واحدة فسيكون الازدحام رهيباً، والأرض تحمل كل المخلوقات من عهد آدم حتى يوم القيامة.

يخرج الناس من الأرض يوم البعث.. ويخرجون هم هم بكل صفاتهم وأوصافهم التي كانوا عليها في الدنيا.. بعض الناس يتساءل: كيف يمكن ذلك؟ كيف يمكن أن تخرجنا الأرض بذواتنا مرة أخرى بعد أن اختلطت المكونات.

ونقول لهؤلاء الناس: لنفرض أن إنسانا مات ودفن في مكان ما.. ثم زرعت شجرة تفاح في هذا المكان فإنها ستتغذى على العناصر المكونة لجسد الميت المدفون تحتها.. فإذا طرحت هذه الشجرة ثمارا وجاء إنسان وأكل من هذه الثمار التي فيها عناصر من إنسان آخر مدفون تحت هذه الشجرة، واختلطت العناصر بعضها البعض.. فالعناصر التي في جسد الإنسان الذي أكل التفاحة هي من إنسان آخر.. ثم بعد ذلك أولاد هذا الرجل سيأخذون من عناصر الجسد الآخر.. وكذلك أولادهم وأحفادهم وتصبح العناصر مختلطة وفي أجساد متفرقة.. كيف يجمعها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة في جسد صاحبها مرة أخرى.

نقول لهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام.. إن تفكيركم تنقصه الحكمة والعلم.. ذلك أن كل إنسان مخلوق من طين، وقد انتهى العلم التجريبي أو العلم المعملي، إلى أن جسد الإنسان مكون من ستة عشر عنصرا هي عناصر الطين.. وأن أولها الكربون والأكسجين.. فهي أعلاها نسبة وآخرها المنجنيز.. ذلك هو الجسد البشري.. والجسد البشري قوته من عناصر الأرض نفسها.. أو مما تنتجه الأرض ولذلك فإن الإنسان إذا أكل كثيرا ترهل جسده وزاد وزنه.. من جنس المواد نفسها المصنوع منها الجسد.. أي إن الإنسان إذا أكل بشراهة وزاد وزنه عشرين كيلو مثلا.. فإن الزيادة لا تكون من مادة غريبة على الجسم.. ولكن من مادة الجسم نفسها؛ لأنها من الطين، والإنسان مخلوق من طين.. وإذا لم يأكل الإنسان انخفض وزنه من عناصر الجسم نفسها أيضاً.. هذه الزيادة

والوزن لا تتعلق بالتكوين الدقيق للإنسان.. ولكنها مواد تُفْقَد وتعود حسب الطعام الذي يتناوله كل منا.

إذا جئنا بعد ذلك إلى الإنسان.. صحيح أننا جميعاً مخلوقون من عناصر الأرض.. خلق مميز.. أي إن نسب عناصر تكوين كل منا تختلف عن الآخر.. فبعضنا يزيد في جسمه الحديد ذرة أو ذرتين.. وبعضنا ينقص.. والبعض الآخر يزيد فيه ذرة منجنيز والبعض الآخر ينقص.. ولذلك فإنك تجد في كثير من الأحيان أنك حين تذهب للطبيب يقول لك: إن عندك نقصاً في الحديد أو في البوتاسيوم.. ويعطيك الدواء الذي يكمل لك هذا النقص.

إذن.. فعناصر الأجسام كلها واحدة.. كل واحد فيه الستة عشر عنصرا الموجودة في الأرض.. ولكن النسب تختلف بين كل واحد منا والآخر.. تكوين هذه النسب هو الذي يكوّن كل شخص فينا.. وهذا التكوين هو من خلق الله سبحانه وتعالى.

ولذلك إذا أعدت النسب بتكوينها نفسه عاد الشخص هو هو إلى الحياة.. وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله.. واختلاف النسب يعطينا عددا لا نهائيا من الأشخاص الذين يتميز كل منهم عن الآخر.. إذن فاختلاف الشخصيات مبني على اختلاف النسب، وليس على عناصر التكوين التي نشترك فيها جميعا.

لكي نقرب ذلك إلى الأذهان - ولله المثل الأعلى - نقول: لنفرض أننا أردنا طلاء منزل، وأتينا بستة عشر لونا أساسيا.. ولا يوجد في الكون ستة عشر لونا أساسيا حسب علمنا.. ثم بدأنا نعد الطلاء الذي نريده.. وأتينا باللون الأبيض مثلا.. لو وضعنا فيه ذرة من اللون الأصفر لاختلف.. ولو زدنا ذرة أخرى لاختلف.. وإذا جئنا باللون الأحمر ووضعنا منه ذرة على الخليط لاختلف.. وإذا وضعنا ذرتين لاختلف.. فإذا جئنا باللون الأبيض المخلوط بذرتين من اللون الأحمر. ثم وضعنا فيه ذرة صفراء أو سوداء أو خضراء.. كل ذرة تعطي لونا مختلفا.. ولذلك فإن الذي يريد طلاء المنزل.. فإنه لابد أن يقوم بعمل خلطة البويات كلها معاً.. ذلك أنه لو قام بعمل خلطة كل حجرة على حدة لما استطاع أن يضبط الألوان أبدا، لأنها عملية غاية في الدقة.. توجد بدائل لا نهائية.. بل إن اللون إذا تركته يوماً في وعاء، فإنك تأتي في اليوم التالي لتجده قد تغير.. بل إنك حين تضع ساعة أو صورة أو نتيجة على الحائط وترفعها بعد عدة أيام.. تجد أن اللون في مكانها قد اختلف عن بقية لون الحائط.. لأن إشعاعات الضوء تتفاعل مع اللون.

إذا كان ذلك يحدث بالنسبة لقدرات البشر المحدودة.. فماذا يمكن أن تفعل طلاقة قدرة الله مع خلقه.. إنها تؤلف؟ لا نهائية.. لا يقف أمامها عدد مهما بلغ.. ذلك لأنه إذا كانت إمكانياتنا الدنيوية نحن لها حدود.. فهذا نظره قوي، وهذا ضعيف، وهذا أضعف.. وهذا يسمع دبيب النملة، وذلك لا يسمع دوي القنابل.. ولك أن تضع ما تشاء

من درجات السمع بين دبيب النملة ودوي القنبلة.. إذن فالإدراكات عند البشر تختلف.. واختلاف المدرك حجما ولونا وتكوينا هو الذي يعطي هذه الإدراكات درجاتها من ضعف وقوة فتعطينا في الدنيا اختيارات بلا حدود.. فكيف بإدراكات الخالق سبحانه وتعالى؟

إذن.. فالذين يثيرون هذا الكلام يعتقدون أنه مادامت أجسادنا مخلوقة من الأرض.. ومادامت الأرض من ستة عشر عنصرا فإن الأجساد ستختلط.

نقول لهم: لا.. إن اختلاف النسب يحفظ لهذه الأجسام خصوصيتها فإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ كُن ﴾.. عادت هذه النسب بالطريقة نفسها التي تكونت بها.. أو بالخلق نفسه الذي تم أول مرة.. فيبعث الإنسان يوم القيامة بجسده هو هو.. وبشخصيته هي هي ليحاسب.. ولا تأتي الأجساد ولا الشخصيات يوم القيامة وقد اختلطت ببعضها البعض.. بل كل منا مميز بتمييز لا يختلط مع أحد غيره.. وكل منها سيأتي بجسده، وشخصيته هي يوم القيامة.. ويبعث هو هو ليحاسب.. فإما أن ينعم.. وإما أن يعذب.

تأتي ساعة البعث ويخرج الناس جميعا مرة واحدة، ويبعثون من الأرض نفسها التي دفنوا فيها، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٥].